«تعريف بكتاب»

طريق الحجّ الأحسائي(١)

إدارة التحرير

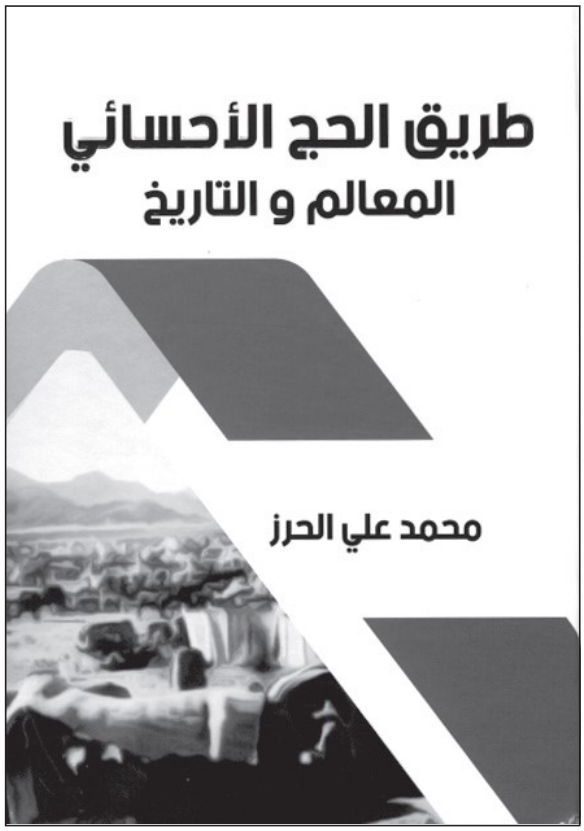

نظـراً لمنهـج مجلة «ميقـات الحـجّ»، وعنايتها بالشـؤون الثقافيـة والتاريخية والسياسـية والاجتماعيـة للحـجّ ودائرتـه المباركـة...، فتحـت بابهـا لا فقـط لاسـتقبال مـا يتفضل به الكتّـاب، ويبـادر بـه العلـماء والمحققـون مـن بحـوث ومقـالات مـن أفـكار وآراء حول عنايتهـا المذكـورة، وإن لم تكتـفِ بانتظـار مـا تجـود بـه معرفتهـم وأناملهـم، بـل راحـت إدارتهـا تسـمع وتقـرأ وتلاحـق مـا يكتب هنـا وينشـر أو يُلقـى هنـاك؛ مـا دام يصبُّ في دائرتهـا المعرفيـة؛ لإعطائـه مسـاحة مناسـبة في المجلـة، حرصـاً منهـا في إغنـاء مكتبتهـا الخاصـة وتراثهـا المعـرفي، ومشـاركةً منها في نشر مـا تصبو إليه مـن أهداف كبـيرة؛ تتمدّد على مسـاحة واسـعة مـن الحرمين المباركـين مكة المكرمة والمسـجد النبوي ومـا حولهما من طـرق وأماكـن ومواقع.[1]

إنّ هـذا الكتـاب «طريـق الحـج الأحسـائي» لمؤلفـه سـماحة الشـيخ محمدعـلي الحرز، كتـاب جيـد لمـا تتوفّر فيـه من أهميـة تاريخيّـة وفوائـد ميدانيّة ومعرفـة لحدود هـذا الطريق ومعالمـه، و قديـماً كان هـذا طريقـاً للحجـاج الإيرانيين.

فطوبـى لمؤلفـه الشريـف، الـذي تحمّـل كثـيراً مـن المعانـاة؛ لإيجاد هـذا السـفر القيّم، نسـأله تعـالى أن يؤجـره أجراً كبيراً، ويؤجر سـماحة الشـيح حسـين الواثقي، الـذي اقترح أن يحتـلّ هـذا الكتـاب مكانته في هـذه المجلة.

***

جاء في مقدمة البحث:

«طالمـا راودتنـي فكـرة التطـرّق لموضـوع الحـج الأحسـائي مـن الناحيـة التاريخيـة؛ والتعريـف بالعلاقة الكبيرة بين الأحسـاء وبـلاد الحجاز، وأهم الطرق التي يسـلكونها في المسـير لأداء فريضة الحـج، والعقبات التي تواجه الحاج الأحسـائي تحديـداً من صعوبات

١. جديد.

ومعوِّقات، حاله حال الـ ثير من الحجاج في مختلف المنافذ المتجهة إلى مكة المكرمة، نظراً للتغافل الكبير من المهتمين بتاريخ الحج وطرق الحاج، وذلكلصعوبة البحث وندرة المصادر التي تناولت معالم هذه الطرق.

لذا اكتفى معظم الباحثين بتناول الطرق المشهورة والمعروفة؛ مثل الشامي والعراقي والمصري واليمني والعماني وغيرهم، دون تجاوز هذه العتبة خشيةً من وعورة الطريق والبحث في هذه النقطة المعتمة...».

الكلمات المفتاحية :

طريق الحاج العراقي، طريق الحاج الشامي، طريق الحاج المصري، طريق الحاج اليمني، ألأحسَاء.

***

ابتدأ المؤلف كتابه هكذا:

... في الرواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «من حجّ ثلاث حجج لم يصبه فقرٌ أبداً».[1]

فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾.[2]

وحفظهم من أهم حوائج ورغبات العبد، وتكفل رب العباد يحفظهم، فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ أدنى ما يرجع به الحاج الذي لا يقبل منه، أن يحفظ في أهله وماله، قال: فقلت: بأي شيء يحفظ فيهم؟، قال: لا يحدث فيهم

---

١. الوسائل٨ : ٩١.

٢. سورة الكهف: ٤٦.

إلّا ما كان يحدث فيهم وهو يقيم معهم».[1]

هذا النزر اليسير أردنا به إعطاء تصور عام عن الثمار التي يجنيها المسلم من هذه الشعيرة العبادية، علماً أنَّ الخوض في فضلها ومنزلتها بابٌ واسع صنّفت فيه عشرات الكتب وكتبت فيه آلاف المقالات.

طريق الحج الإسلامي

اشتهر للحج الإسلامي خمس طرق يسير عبرها معظم المسلمين القادمين للديار المقدّسة عبر البرّ، وذلك من مختلف البلدان والنواحي والجهات.

وقد دوّن المؤرخون في مصنفاتهم تلك الطرق والمسالك بمزيدٍ من العرض والبسط، مع الإشارة إلى الخدمات التي تسهّل وتستقطب مرور الحجاج من حفر الآبار والأوقاف، إضافة إلى تأمين الحماية والرعاية وخدمات الحاج المختلفة.

وهذه الطرق الخمس المشهورة سنوردها تباعاً كما يلي:

الأول: طريق الحاج العراقي:

للحاج العراقي ومن يسير في ركبه أو على دربه طريقان، هما:

١ـ طريق حجّاج الكوفة، ويعرف بـ(درب زبيدة):

ويُعدُّ من أهمّ الطرق الذي تسير عليه جموع غفيرة من الحجّاج العراقيين، فمن يسير عليه من سائر الحجّاج غير العراقيين حجاج أهل فارس وخراسان، والديلم.[2]

---

١. الوسائل٨ : ٦٧.

٢. الديلم أو الديالمة: هم إحدى الشعوب الإيرانية التي عاشت في شمال الهضبة الإيرانية، وقد جاء ذكرهم على ألسنة المؤرخين حتى حقبة بدايات انتشار الإسلام. للاستزادة: انظر ويكيبيديا على شبكة الإنترنت.

وبخـارى،[1] ومـا وراء النهـر،[2] وإقليـم الجبـل،[3] ممـا جعـل مسـؤولية أمـير الحـاج كبـيرة، خاصّـة أنّـه طريق موكـب الخلافة العباسـية والتي اعتنت خـلال مسـيرتها التاريخية بتوفير الخدمـات اللوجسـتية التـي يحتاجها المسـافرون المـارّون بهـذا الطريق الحيـوي، وذلك من خـلال حفـر الآبـار وتوفير محطـات توقف واسـتراحة.

ومـما تجـدر الإشـارة لـه أنَّ هـذا الطريـق يعتـبر مـن الطـرق القديمـة، ويعد مـن أهم طـرق الحـج والتجـارة خلال العصر الإسـلامي، وقد اشـتهر باسـم «درب طبيدة» نسـبة إلى السـيدة زبيـدة،[4] بنـت جعفر بـن أبي جعفر المنصـور زوج الخليفـة هارون الرشـيد، لما قامـت مـن إنشـاء الموقوفات وحفـر الآبـار على هـذا الطريق.

ويمتـد درب زبيـدة «طريـق الحـج الكـوفي» مـن بغـداد مـروراً عـلى مدينـة الكوفة في العـراق مـروراً بـ لمملكـة الشـمالية ووسـطها وصـولاً إلى مكـة المكرمـة، ويبلـغ طولـه في أراضي المملكـة أكثـر مـن ١٤٠٠ كلم، حيث يمر بخمـس مناطق، هي: الحدود الشـماليه، حائـل، القصيـم، المدينة المنـورة، مكـة المكرمة.

---

١. بخارى: مدينة في جمهورية أوزبكستان.

٢. بلاد ما وراء النهر: هي منطقة تاريخية وجزء من آسـيا الوسـطى، تشـمل أراضيها أوزبكسـتان والجزء الجنـوب الغـربي من كازاخسـتان والجـزء الجنوبي من قيرغيزسـتان. للاسـتزادة انظـر: ويكيبيديا على شبكة الإنترنت.

٣. كـمال، سـليمان صالـح، إمـارة الحج في العـصر العباسي من سـنة ١٣٢هـ إلى سـنة ٢٤٧هـ، بإشراف الدكتـور السـيد محمـد أبـو العـزم داود، رسـالة مقدمـة لنيـل درجـة الماجسـتير في جامعـة أم القـرى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨و. غـير منشـورة: ١٢٨.

٤. السـيدة زبيـدة: هـي الأمـيرة أم جعفـر زبيـدة بنـت جعفر بن أبـو جعفـر المنصـور (١٤٩ـ٢١٦هـ)، زوجـة الخليفـة العبـاسي هـارون الرشـيد، وحفيـدة مؤسـس الدولة العباسـية الخليفـة أبـو جعفـر المنصـور مـن خـلال ابنـه جعفـر، تعتبر مـن أهم نسـاء الدولـة العباسـية وأكثرهم شـهرة ممـا كان لها مـن دور في أمـر الخلافـة، فهـي أمُّ الخليفة الأمـين. من أهم أعمالها بنـاء أحواض للسـقاية للحجاج في دربهـم مـن بغـداد إلى مكـة فيما عـرف بـدرب زبيدة.

وهـو يسـير على عدد المحطـات والمراحـل العامرة بالمـزارع والخيرات والمياه ليسـتطيع الحاج التـزود بالمؤونة ولـوازم الطريق.

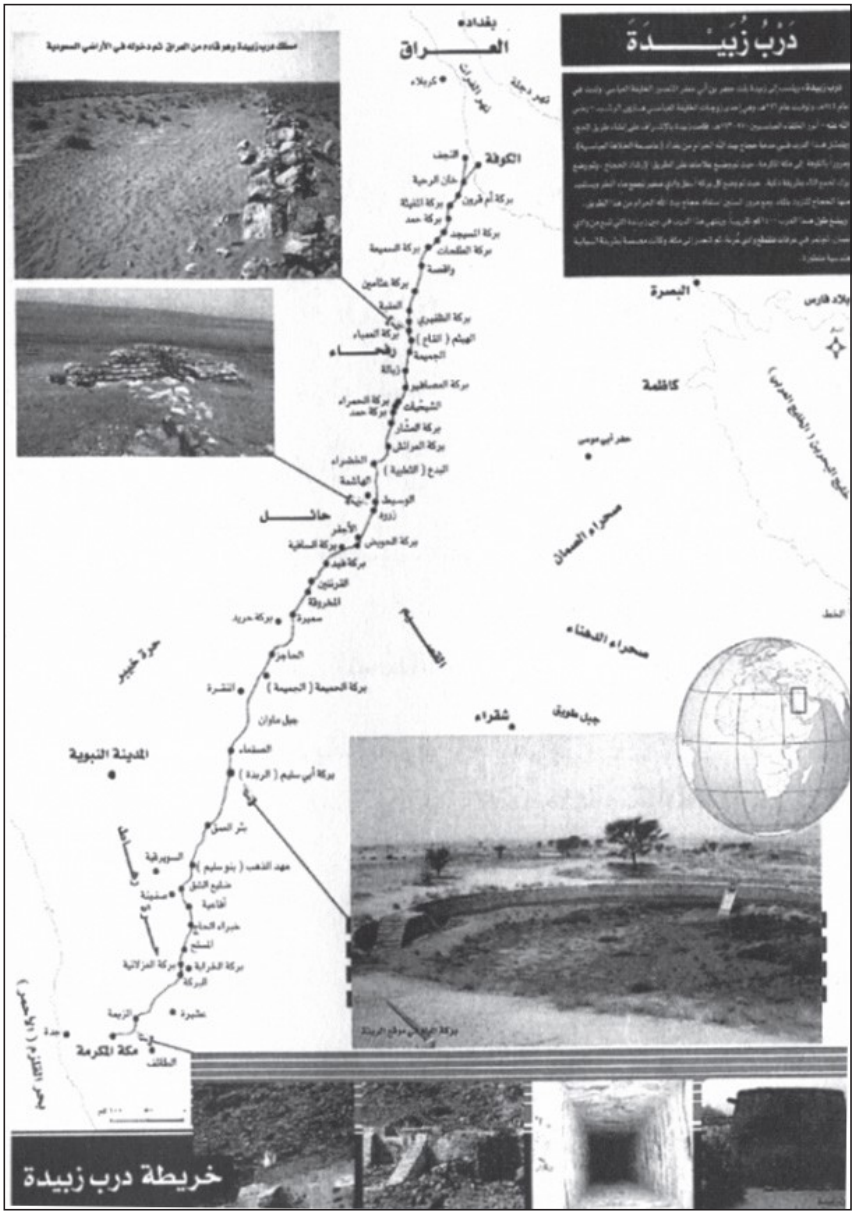

خريطة طريق حاج الكوفة المشهور بـ «درب زبيدة».[1]

١. المغلـوث، سـامي بـن عبدالله بـن أحمد: أطلـس الحجّ والعمـرة، العبيكان للنشـر، الريـاض، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، :١٠١.

إحدى المعالم الأثريّة على درب زبيدة التاريخي

٢ـ طريق حاج البصرة:

وينال هذا الطريق أيضاً أهمية بالغة من حيث الحج والتجارة، ويبدأ الطريق من البصرة مروراً بشمال شرق شبه الجزيرة عبر وادي الباطن مخترقاً عدة مناطق صحراوية أصعبها صحراء الدهناء، ثم يمر بنجد التي تعد من الأراضي الخصبة، وبعدها يتجه الطريق محاذياً لطريق الكوفة ـ مكة، حتى يلتقيا عند محطة أم خرمان أوطاس، والتي تقع على مسافة عشرة أميال من موقع ذات عرق.

يلتقي طريق البصرة بالطريق الرئيسي الممتد من الكوفة عند منطقة معدن النقرة التي يتفرع منها طريق يتجه إلى المدينة المنورة.

ويعدّ من الطرق المهمة التي يسلكها أهالي تلك المناطق إضافة للحجاج خوزستان وعبادان ومن لفَّ لفهم، وهو من حيث العدة والضخامة أقل من الطريق المنطلق من الكوفة إلّا أنه لا يقل عنه أهمية ومكانة لكثرة من يطرقه للأغراض المتعددة، والتي من

أهمّها مـرور قوافل الحج.

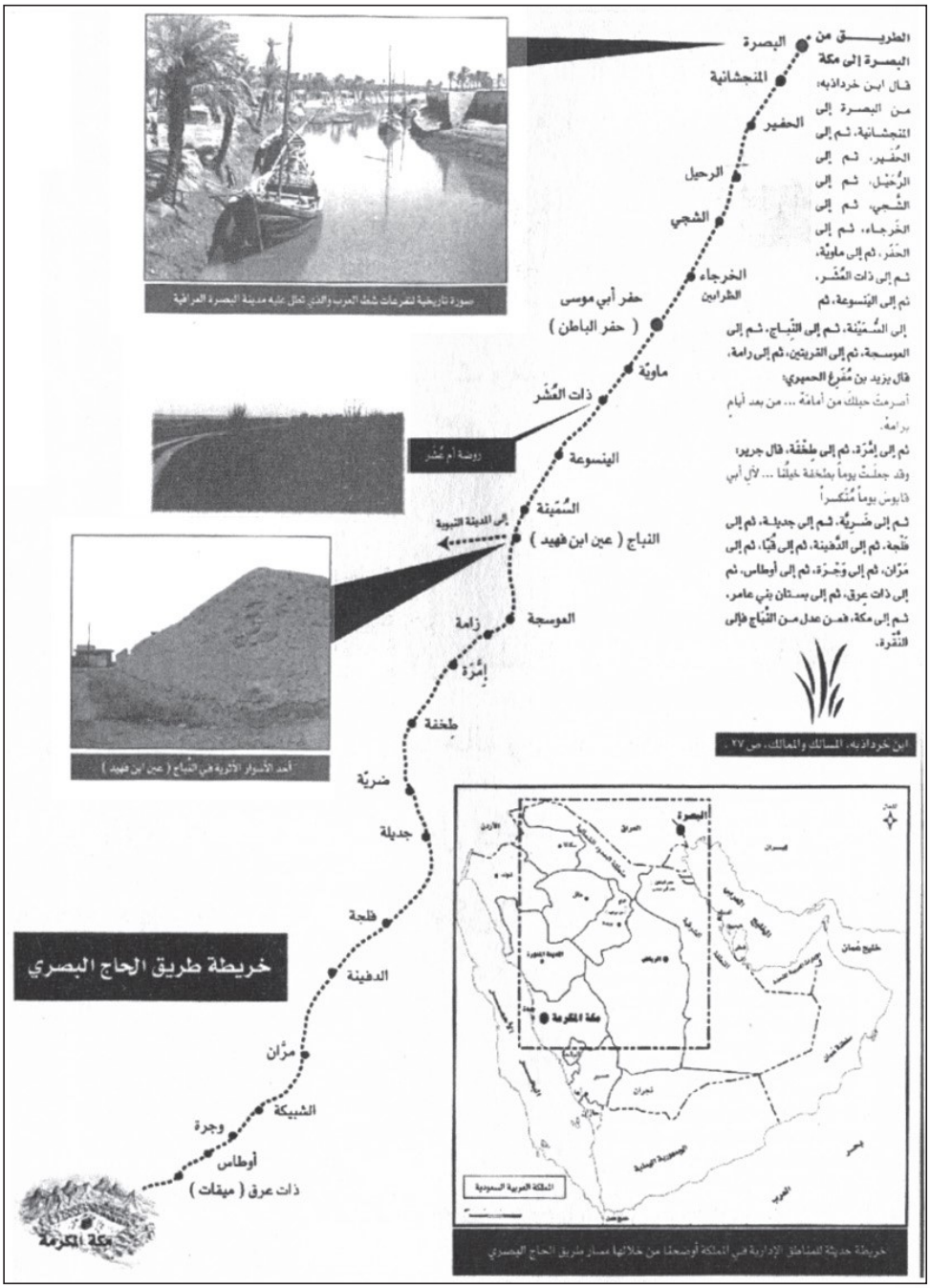

خريطة طريق الحاج البصري[1]

١. أطلس الحجّ والعمرة، مصدر سابق، ص: ١٠٤.

ثانياً: طريق الحاج الشامي:

ينطلق مركب الحاج الشامي من دمشق مركز تجمع الحجيج السائرة على هذا الدرب، وتتحرّك الجموع متهجة في أول مراحله إلى الصين، وهي قرية من أعمال دمشق، وهكذا متّجهة عبر عدد من المنازل والمراحل إلى الحَفير، وهو نهر بالأردن، بعدها يدخلون أرض الحجاز عبر منطقة سرغ،[1] وهي أول الحجاز وآخر الشام، متجهين نحو تبوك، ومنه إلى وادي القرى، ثم يسيرون في منازل متعددة إلى أن يصلوا إلى المدينة المنورة، ومن المدينة يكملون المسير إلى مكة المكرمة على الجادة المعروفة بين الحرمين الشريفين.[2]

والشيء اللافت والملاحظ على معظم الطرق التي يسلكها الحاج خلال مسيره اختلاف بعض المنازل بين الرحالة وقوافل الحجيج بعداً وقرباً، وذلك تبعاً للظروف المختلفة وخبرة الدليل والقائد للرحلة، وإن كانت تتفق في الوجهة والجهة مع تغيّر في القرى وأماكن الآبار.

١. سرغ حالياً تسمى المُدَوَّرة، وهي تقع في أقصي جنوب الأردن بالقرب من الحدود السعودية على طريق تبوك.

٢. عيسى، هيام علي: الحج إلى الحجاز في العصر المملوكي (٦٤٦هـ / ١٢٥٠م-٩٢٣هـ / ١٥١٧م)، جامعة القديس يوسف، أطروحة دكتوراه، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م: ١٤٢.

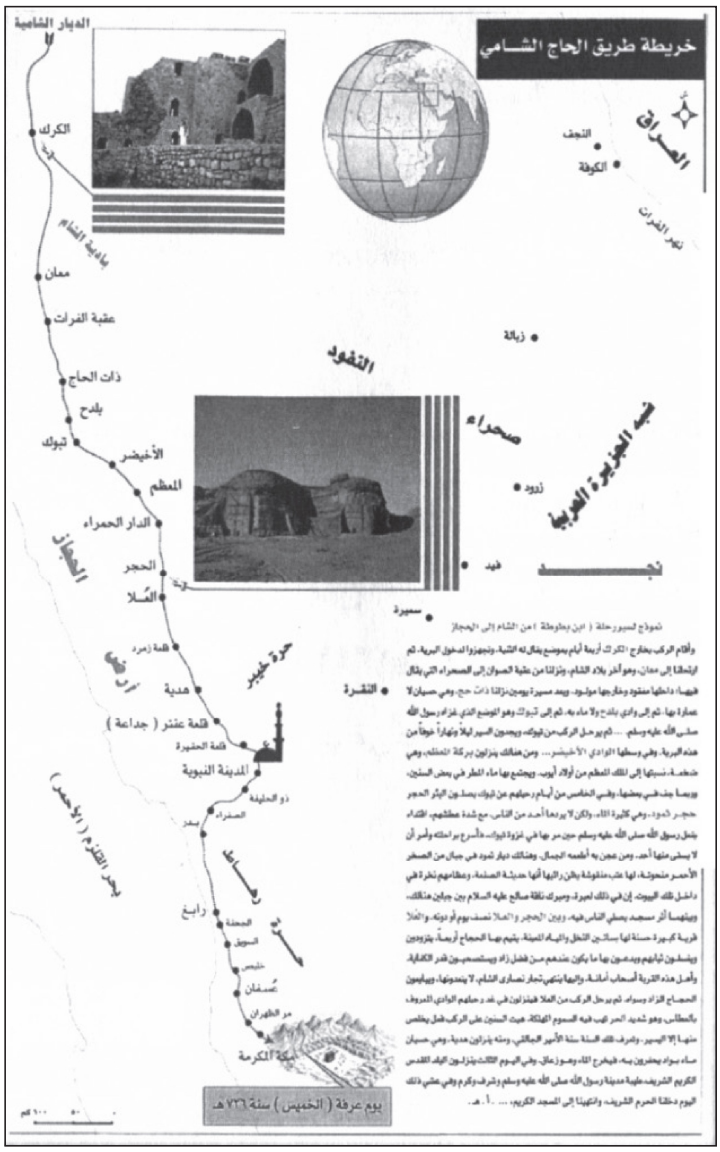

نموذج لمسير رحلة (ابن بطوطة) من الشام إلى الحجاز

وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية، وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا إلى معان، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: داحيا معقود وخارجها موجود. وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج. وهي حسيان لا عمارة بها. ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به. ثم إلى تبوك، وهو الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ... ثم يرحل الركب من تبوك، ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية. وهي وسطها الوادي الأخيضر... ومن هنالك ينزلون بركة المعظم، وهي خمسة. نسبتها إلى ذلك المعظم من أولاد أيوب. ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين، ويبسا جف في بعضها. وهي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك، يصلون البئر الحجر حجر ثمود. وهي كثيرة الماء. ولكن لا يرتحل أحد من القناص، مع شدة عطشهم، اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك. فأسرع برحلته وأمر أن لا يشرب منها أحد. ومن عجب به أطعمه الجمال. وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة، لها عتب منقوشة بالفن الذي أتيها هندسة الصنعة. ومظاهرهم نخرة في داخل تلك البيوت. إن في ذلك لعبرة. ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك. وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه. وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه. والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والميه المعينة. يقيم بها الحجاج أربعة. يتزودون ويشترون ثيابهم ويبيعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد. ويستصحبون من قدر الكفاية. وأهل هذه القرية أصحاب أمانة. وإليها ينتهي تجار نصارى الشام. لا يتعدونها. ويبيعون الحجاج الزاد وسواه. ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحليهم الوادي المذروف بالحطاب، وهو شديد الحر. تهب فيه السموم المهلكة. هيت السنين على الركب فعل بخلص منها إلا اليسير. وتصرف تلك السنة سنة الأمير البعاقلي. ومنه يتزاين هدية. وهي حسيان ماء سواد يحتفرون به. فيخرج الماء وهو زعاق. وفي اليوم الثالث ينزلون الوادي المقدس الكريم الشريف، عليه مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وهي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، ... ا. هـ.

خريطة طريق الحاج الشامي.[١]

ثالثاً: طريق الحاج المصري:

ويعدُّ من أهمّ الطرق إلى مكة المكرمة عليه تسير مواكب الحجّاج القادمة من القارة الأفريقية، كالموكب المغربي وغيره، وينطلق الموكب من المنطقة المعروفة بـ(بركة

١. أطلس الحجّ والعمرة، مصدر سابق، ص: ١٠٦.

الحاج)،[1] ثـم ينطلـق باتجـاه قنـاة السـويس، إلى أرض الجزيـرة وصـولاً إلى مكـة المكرمـة، وهـو يمـرّ عـبر مجموعة مـن المراحـل ذكـرت في الكتـب المفصلة.

ويعـدّ المحمـل المـصري المرافـق للموكب أهـم المحامـل وأخصّها، حيـث يصطحب معـه في كلّ عـام كسـوة الكعبـة الشريفـة، وقد اسـتمر ذلـك من عهـد المماليـك إلى قريب منتصـف القـرن الرابـع عـشر الهجـري، وتحديـداً عندمـا سـيطر الملـك عبـد العزيـز على الحجـاز سـنة ١٣٤٢هـ، حيثُ توقفت عملية اسـتجلاب الكسـوة من مصر، عـلى أن يتم صنعهـا في داخـل الدولـة السـعودية كما سـيأتي لاحقاً.

خريطة طريق الحاج المصري.[2]

١. العبـدلي، عائشـة مانـع عبيد: إمـارة الحج في عـصر الدولـة المملوكية وأثرهـا على الأوضـاع الداخلية بمكـة المكرمة (٦٤٨ـ٩٢٣هـ) / (١٢٥٨ـ١٥١٧م) دراسـة تاريخية ـ تحليليـة، جامعة أم القرى: مكة لمكرمة، الطبعـة الأولى: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م: ١٤.

٢. أطلس الحجّ والعمرة، مصدر سابق، :١١٦.

رابعاً: طريق الحاج اليمني:

للحاج القادم من اليمن عدة طرق، وهي كما يلي:

١ـ الطريق الساحل:

وهو طريق يمرّ بجوار البحر الأحمر محاذياً له من الشرق، ويبدأ من عدن فأَبْيَن مروراً بالمخنق، فإلى عارة، ثم عبرة، فالسقيا، فباب المندب. فسماري، ثم الخوخة والأهواب وغلافقة. وهي فرضة زبيدة، ثم نبعة، فالحردة، ثم الزرعة، ثم الشرجة. بعدها يسير الطريق من الشرجة إلى المفجر، فإلى القنيدرة، ثم عثر، ثم بيض، ثم الدويمة، ثم حمضة، ثم ذهبان، ثم حلين، ثم قرما فدوقة، إلى السرين، وهي ملتقى طريق الساحل مع طريق الداخل، ومنها يفترقان أيضاً كلّ في جهته، حيث يسير الساحلي صوب الليث فاشعيبة إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة.

٢ـ الطريق الداخلي:

وهو التهامي، ويعرف باسم الجادة السلطانية. يبدأ الطريق من تعز ويمر بذات الخيف، فموزع، ثم الجدون، ثم حيس، ثم زبيد. إذ تتجمّع فيها القوافل التي تسلك طريق الجادة السلطانية، ومنها تنطلق في سيرها إلى مكة المكرمة مارةً بفشال والضنجاع، والقحمة، والكدراء والمهجم ومور والواديين، والساعد وتعشر وجازان والهجر وبيش إلى ضنكان، ومنها يتجه الطريق إلى المقعد فحلي العليا ثم يبه ثم قنونا، ثم عشم، ثم دوقة فإلى السرين حيث يلتقي بالطريق الساحلي، ومنها يفترق في مساره الداخلي إلى الليث، فالخضراء، ثم سعيا، فيلملم ـ ميقات أهل اليمن ـ حتى مكة المكرمة.

٣ـ الطريق الأعلى:

ويعـرف باسـم الطريـق الجبـلي، ومركـز انطلاقـه صنعـاء ويتجـه الطريـق إلى صعدة، ومنهـا إلى العرقـة، ثـم المهجـرة، ثم أرينب، ثـم سروم الغيض، ثـم الثجة، ثم بيشـة ومنها إلى تبالـة، فالقريحـاء ثـم كـرى، ثـم تربة، ثـم الصفن، ثـم العنق، ثـم رأس المناقـب، وهي منتهـى الطريـق في اتجـاه الشـمال، وينحـرف في سـيره صـوب الغـرب إلى قـرن المنـازل، وهـو ميقـات أهل اليمـن الذين يمـرون من تلـك الجهـة، ويتجهون محرمـين صوب مكة مجتازيـن الزيمـة، والطائـف عن طريق السـيل.[١]

خريطة طريق الحاج اليمني.[٢]

١. انظر: إمارة الحج في العصر العباسي، مصدر سابق: ١٦٣.

٢. أطلس الحجّ والعمرة، مصدر سابق، ص: ١١١.

خامساً: طريق الحاج العماني:

١ـ طريق عمان الساحلي:

وهـو طريق سـاحلي لحجـاج عمان يتجـه إلى فـرق، ثم عـوكلان، ثم إلى سـاحل هباه، وبعدهـا إلى شـحر، ثـم تتابع القوافل سـيرها عـلى أحد الطـرق اليمنية الرئيسـة المؤدية إلى مكة .

٢ـ طريق عمان الداخلي:

لطريـق الحـج العُـماني مسـاران: فأحدهما يتجه مـن عـمان إلى يبرين، ثم إلى الأحسـاء. ومنهـا إلى اليمامة. ثـم إلى ضرية.

وتشـير المصـادر الجغرافية إلى أن ضرية كانت لتلتقي حجّـاج البصرة والبحرين، حيث يفترقـون بعدهـا إذا انصرفـوا من الحج، فيتجه حجاج البصـرة شـمالاً؛ وحجاج البحرين باتجـاه اليمين، وكـما كان بإمكان القوافل القادمـة من عمان اجتياز منطقة الأحسـاء لتلقتي بطريق اليمامـة مكة المكرمة.

وهنـا نجـد الإغفال في المصـادر التاريخيـة ـ إلّا القليل منهـا ـ لطريق الحج الأحسـائي والـذي تسـلكه حشـودٌ كبـيرة مـن المسـلمين سـواء مـن الحسـائيين أو مـن العابرين على الـدرب الأحسـائي في طريقهـم إلى الديار المقدسـة، وهو ما سـنحاول كشـف النقاب عن معـالم هـذا الطريق خـلال الصفحـات القادمة.

خريطة طريق الحاج العُماني.[١]

الأحساء نبذة تعريفيّة ، الأحساء في اللغة والاصطلاح:

الأَحساء بفتح الألف وإسكان الحاء وفتح السين المهملة، تعني الأرض الرملية التي يوجد تحتها طبقة سفلية من صخر صلد تمسك بماء المطر لوقت طويل، وهذا الماء يمكن الوصول إليه واستخراجه بسهولة ويسر، والحفرة من هذا النوع تسمى حسب المعاجم اللغويّة «حسي» وجمعها «إحساء»، ولكثرة الأحسية في هذا الموقع عرفت المنطقة بـ «الأحساء».

أمَّا الأحساء اصطلاحاً فهي محافظة سعودية تقع شرقي الجزيرة العربية، وتبعد

١. أطلس الحجّ والعمرة، مصدر سابق، :١٠٨.

عـن العاصمـة الريـاض ٣٢٨كلم. تبلغ مسـاحتها ٣٧٩٠٠٠ كلـم،[١] أي ما يُعـادل ٢٠٪ مـن أراضي المملكـة العربيـة السـعودية، وتُغطّـي صحـراء الربع الخـالي نحو ثلاثـة أرباع المحافظة.

وتنبـع أهميـة موقع الأحسـاء اسـتراتيجيّاً كونهـا تربط بـين المملكة في جزئهـا الشرقي بعـدد من الـدول المجـاورة كالبحرين والكويـت عمان والإمـارات وقطر، كـما تعد أقرب منفـذ بحـري لوسـط الجزيـرة العربيـة، ومن هنـا فهي تعتـبر محطة بـارزة في طريـق الحاج القـادم مـن الـشرق، كما تعـد منطقـةً تجارية هامـة على مسـتوى الخليـج [الفارسي].

أمّـا الحـدود فيحدهـا مـن الجنـوب سـلطنة عُـمان، ومـن الـشرق خليج سـلوى ومن الغـرب صحـراء الدهناء. وهـي تتمثّل في مدينتـي الهُفوف والمبرَّز، وأكثر من خمسـين قرية مختلفـة الحجـم والكثافـة السـكانية، معظمهـا في الاتجاه الشرقي والشـمالي من الأحسـاء.

خريطة الأحساء وحدودها الإداريّة.

١. خريطة الأحساء وحدودها الإداريّة.

* مقوّماتها الطبيعيّة:

تشتهر الأحساء بكثرة نخيلها التي تغطي مساحات هائلة من أراضيها وتزيد على ثلاثة ملايين نخلة، وتنتج أكثر من مائة ألف طن من التمور سنوياً، أي ما يُعادل ١٠٪ من إنتاج المملكة، وهي في الأصل واحة طبيعية، ومُصنّفة كأكبر واحات النخيل في العالم.

كما تمتلك الأحساء واجهة بحرية على الخليج [الفارسي] تبلغ مساحتها ١٣٣ كم، وكانت قديماً من أغني مناطق المملكة بالمياه الجوفية، والعيون التي يتراوح عددها بين ٦٠ و ٧٠ نبعاً.

* تاريخها السياسي:

تعتبر الأحساء ـ بعمقها التاريخي الممتد ـ حاضرة جاذبة للتجمعات البشريّة، لما تمتلكه أرضها الغنّاء من أسباب للبقاء والديمومة، ما جعلها محطّاً للعيون، حيث تعاقب على حكمها منذ صدر الإسلام مجموعة كبيرة من الدول، كدولة القرامطة والدولة العيونية والجروانية ودولة بني عصفور وآل جبر، وانتهاءً بالعثمانيين والدولة السعودية في عهودها الثلاث.

وسنأتي تباعاً على ذكر المرتبط بتاريخ الحج منها لاتصاله ببحثنا في ثنايا البحث.

* المعالم الأثرية:

ضمّت الأحساء عشرات المعالم الأثرية الهامة منها:

ميناء العقير: يقع على ساحل الخليج [الفارسي] على بعد ٦٠ كم من مدينة الهفوف، وهو أحد الموانئ الهامة، الذي يأتي عن طريقه الحجاج إلى الأحساء.

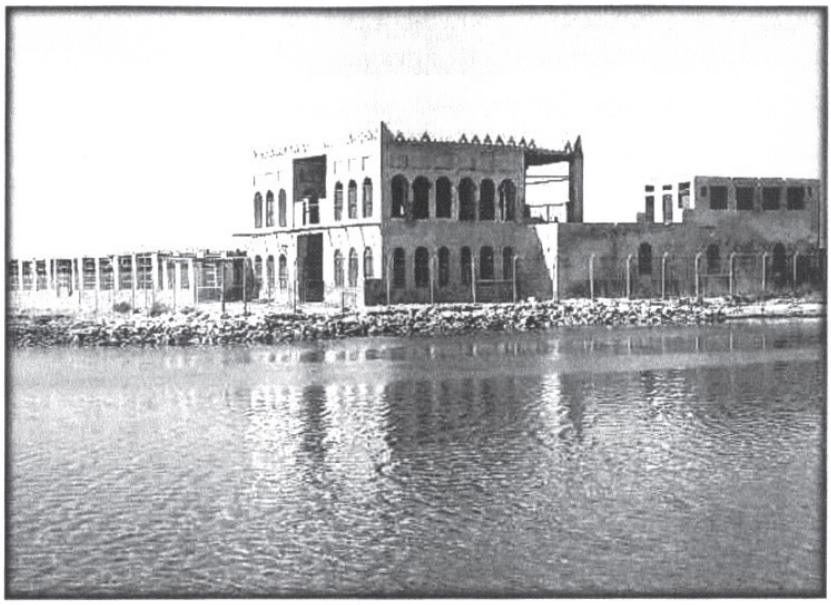

ميناء العقير التاريخي

مسـجد جواثـى: يقـع عـلى بعد نحـو ٢٠ كـم شـمال شرق مدينة الهفـوف، ومـا تزال قـواده قوائمـة إلى وقتنـا الحـالي، وترجـع أهميتـه التاريخية بصفته ثـاني مسـجد أقيمت فيه صـلاة الجمعة في الإسـلام بعد مسـجد رسـول الله، قام ببنائـه بنو عبد القيـس الذين كانوا يكنون الأحسـاء في تلـك الفترة.

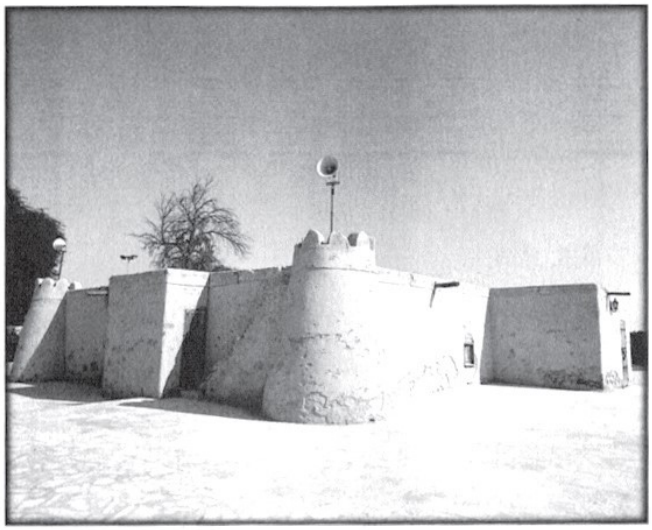

مسجد جواثى

قـصر محـيرس: يقـع في شـمال المـبرز عـلى أعلـى تلـة مـن المدينـة؛ وعـلى بعـد ١٤ كم شـمال مدينـة الهفوف، تم تشـييده عـام ١٧٩٤م وذلـك في أوائـل العهد السـعودي، وهو عبارة عـن قلعـة حربيـة تضـم برجـاً للمراقبـة والرصد.

قصر محيرس بالمبرز

قـصر إبراهيـم: ويسـمى أيضـاً قلعـة إبراهيـم نسـبة إلى إبراهيـم باشـا القائـد العثماني الـذي حكـم محافظـة الأحسـاء آنـذاك، ويقـع القصر شـمال مدينـة الهفوف على مسـاحة تقدّر بـــ١٦٥٠٠م.

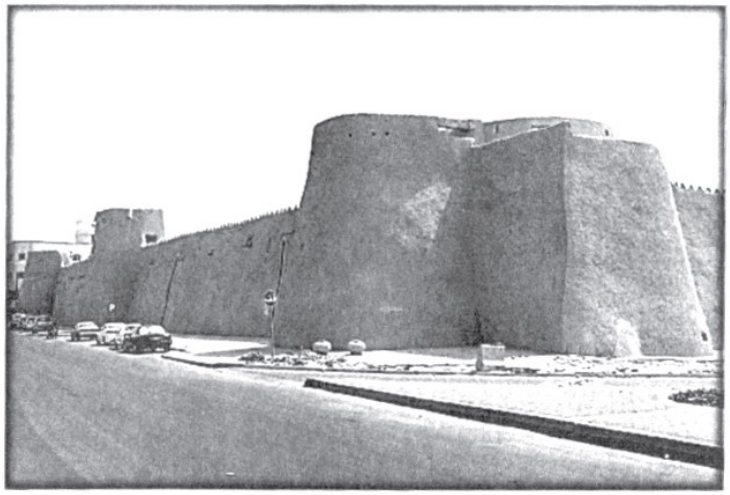

قصر إبراهيم بالهفوف

قـصر صاهـود: يقـع في حي الحـزم بمدينـة المبرز عـلى مسـاحة ١٧٥٠م،[1] تـمّ بناؤه في عـام ١٨٠٠م للدفاع عن المدينـة وحماية الأراضي الزراعية ومراقبة مخيمات البدو الموسـمية.

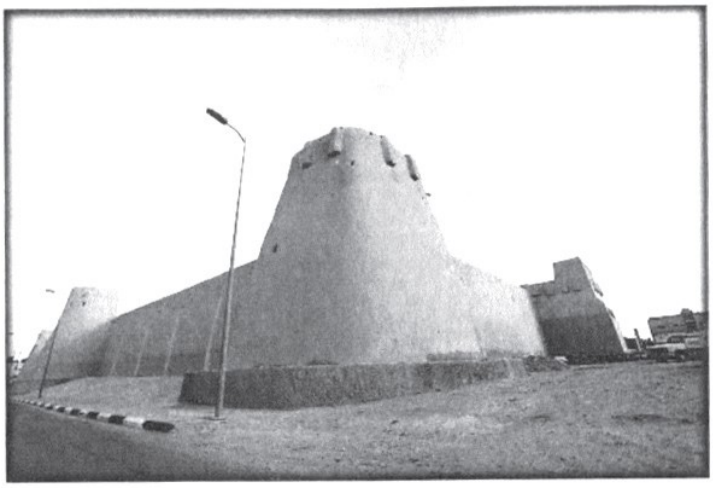

قصر صاهود بالمبرز

إضافـة إلى العديـد مـن المعالم الأثريـة والتاريخية والطبيعية التي تسـتقطب السـياح من مختلف أرجـاء العالم.

هـذا الموجـز المقتضب عن الأحسـاء أوردناه ليتعـرف القارئ الكريم على لمحة يسـيرة عن مكانـة وتاريخ هذه المنطقـة الحيويّة.

في هـذا الفصـل سـنتعرض إلى واقـع طريـق الحجّـاج الأحسـائيين في مراحـل تعاقب الحـكّام والـدول على حكم منطقة الأحسـاء بـدءًا من العصـور الإسـلامية الأولى وانتهاءً بالدولـة السـعودية الثالثـة والتـي نعيش في كنفهـا حالياً وهـي كالتالي:

* العصور الإسلامية الأولي
* دولة القرامطة (٢٨١ـ٤٦٩هـ)
* الدولة العيونيّة (٤٦٩ـ٦٣٦هـ)

١. قصر صاهود بالمبرز.

* الدولة العصفوريّة (٦٣٠ـ...)

* الدولة الجبريّة (٨٢٠ـ٩٣٠هـ)

* دولة آل مغامس (٩٣٢ـ٩٥٣هـ)

* الدولة العثمانيّة الإولى (٩٥٧ـ١٠٨٢هـ)

* دولة بني خالد (١٠٨٠ـ١٢٠٨هـ)

* الدولة السعودية الأولى (١١٥٧ـ١٢٣٣هـ)

العصور الإسلاميّة الأولى

تبوأت الحجاز مكانة كبيرة في قلوب الهجريين، عمادها العلاقة الدينية والاقتصادية التي تعمقت بمرور السنين، فالهجريون منذ القدم ينظرون إلى الحجاز كبعد استراتيجي وديني لا غنى لهم عنه، ففيها مهد الرسالة، وإليها تهفو القلوب الواهة، وفي أعتابها تحت الخطايا.

ولم يكن البعد الاقتصادي ببعيد عن هذه العلاقة اللصيقة منذ العهد النبوي الشريف وإشراقة شمس الإسلام الساطعة، فالمصادر التاريخيّة تشير إلى هذه العلاقة الوطيدة، والتي يظهر أنها عريقة وقديمة تمتد إلى ما قبل العصر الإسلامي، وذلك عندما كانت الصادرات الأحسائية من السلع الغذائية والمنتجات الحرفيّة المصنوعة على أيدي حرفييها المهرة ونساجها المشهورين تصدّر إلى باقي البلدان المحيطة من أقصي الجزيرة العربية إلى أقصاها من جميع الجهات، والتي منها الثياب والبرود والأدرعة، فقد كانت تستورد من الأحساء وتصدّر إلى الحجاز، ومنها مكة المكرمة، وقد اشترى رسو الله صلى الله عليه وآله منها بعض السراويل، كما يشير ابن سعد في طبقاته بأنه: بَعَثَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله سَلِيطَ بْنَ عَمْرِو الْعَامِرِيَّ إلى هَوْذَةَ بْنِ على الْحَنَفِيِّ يَدْعُوهُ لى الْإِسْلَامِ وَكَتَبَ إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: مَا أَحْسَنَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَأَجْمَلَهُ وَأَنَا شَاعِرُ قَوْمِي

وَخَطِيبُهُمْ وَالْعَرَبُ تَهَابُ مَكَانِي فَاجْعَلْ لِي بَعْضَ الْأَمْرِ أَتَّبِعْكَ وَأَجَازَ سَلِيطَ بْنَ عَمْرٍو بِجَائِزَةٍ وَكَسَاهُ أَثْوَاباً مِنْ نَسْجِ هَجَرَ.[1]

كما أنه وفي نفس العهد النبوي الشريف كان سماك بن حرب يشتري البز من مدينة هجر ويبيعها بالمدينة المنورة.[2]

هذه النماذج وغيرها تبين العلاقة الوشيجة بين هجر والدار النبوية بالمدينة المنورة من حيث الاستيراد والتصدير، الأمر الذي يتخلّله التواصل الديني وأخذ التعاليم الدينية في موسم الحج.

كما أنّ العلاقة لم تكن مقتصرة على الفترة الدينية وهي موسم الحج، وإنما تجعل العلاقة التجارية التي تبقيها على تواصل دائم بالحجاز وعلى الخصوص المدينة المنورة لأخذ التعاليم الدينية وللإجابة عن التساؤلات التي ترد أو تطرأ وفق الحاجة والظرف.

لذا لم يكن موسم الحج منذ القدم لدى التجار والحجاج الأحسائيين موسماً عباديّاً فقط، وإنما هو فرصة تجارية تتمثّل في نقل البضائع التي تتميز بها هجر وبلاد البحرين بصفة عامة وبيعها في موسم الحج.

لقد ذكرت المصادر أنه في عصر الخليفة عمر بن الخطاب بلغ خراج هذه البلاد في إحدى السنوات خمسمائة ألف دينار حملها أبو هريرة من هجر إلى المدينة المنورة كما كان تجار هذه البلاد يتردّدون بمتاجرهم على مدن الحجاز بعدة سلع، من أهمّها المسك والتمور والمنسوجات.[3]

---

١. ابن سعد، محمد: الطبقات الكبرى، دار صادر: بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٨٨م: ١ : ٢٥٨.

٢. العامر، طاهر معتوق ميناء: العقير ودوره في اقتصاد الجزيرة العربية، الدار الوطنية الجديدة: الخبر، الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م: ص: ١١١.

٣. آل ملا، عبدالرحمن بن عثمان، تاريخ الإمارة العيونية في شرق الجزيرة العربية، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري: الكويت، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢م: ٧٤.

كما أنَّ أهل البحرين كانوا يستفيدون من موسم الحج بالاتصال بالأئمة من آل البيت عليهم السلام من أجل تلقّي الأحكام الشرعية والاستفسار عن أيّة مسائل عالقة لديهم.

ففي كتاب «اسد الغابة» يذكر ابن الأثير أنَّ الصحابيَيْن جابر بن عبيد، وأبنه عبدالله عندما حجّا، وكانا بمنى، مرّا على الإمام الحسن بن على بن أبي طالب: (ت: ٥٠ هـ) للسلام عليه، فرحّب الإمام عليه السلام بجابر وأوسع له، وأجابه على سؤال فقهي كان قد سأل عنه، وجابر هذا ذكره ابن الأثير في ترجمته في كتابه «أسد الغابة»،[1] أنه كان يسكن البحرين، وأحد الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله في الوفادة الأولى.[2]

وقد أولى الخلفاء في الدولة الإسلامية طريق الحج عنايةً خاصة، لما يشكّله الحج من أهمية دينية لدى المسلمين، ولما يكتنف هذا الطريق من مخاطر وصعوبات، وما يقع فيه من اعتداءات على الحجاج أثناء التنقّل والترحال بين منزلٍ وآخر ومحطّةٍ وأخرى.

وكانت منطقة البحرين من المناطق التي أُوليت أهمية كبيرة بالعناية من قبل أمراء الحج بصفتهم أصحاب دراية وخبرة بشؤون الحج، وعلى علم واطلاع بما يكتنفه من صعوبات ومشاق وعثرات.

ففي سنة ١٣٥ هـ كان أمير الحج لبلاد البحرين بجميع أجزائها سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس (٨٢ ـ ١٤٢ هـ)، فقد ولّاه الخليفة العبّاسي أبو العباس السفّاح ـ ابن أخيه ـ ولاية البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين وعمان سنة ١٣٣ هـ، واستمرت ولايته حتى سنة ١٣٩ هـ،[3] وفي هذه السنة ١٣٥ هـ عيّنه أميراً على الحج، ومما لا شك فيه أن البحرين التي تحت إمرته شملها بركبه ومحمله.

---

١. ابن الأثير، عز الدين، أسد الغابة، دار الفكر: بيروت، ط: ١٤٢٩ هـ ـ ١٩٨٩ م: ٣ : ٨٩.

٢. الجنبي، عبد الخالق: تاريخ التشيع لأهل البيت في إقليم البحرين القديم، دار المحجة البيضاء: بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥ م: ٣٧٠، أسد الغابة، مصدر سابق: ١ : ٣٠٨.

٣. عناد، أ. م. د. وجدان فريق، إمارة الحج في عهد الخليفة أبي العباس السفاح (١٣٢ـ١٣٦ هـ)، مركز أحياء التراث العملمي العربي: جامعة بغداد، (د.ت): ٦.

ومـن الحـوادث اللافتـة التي وقعت سـنة ١٦٧ هــ في عهـد الخليفة المهـدي العباسي، حـين اعتـدى عـرب بادية البـصرة بين اليمامـة والبحريـن، وانتهكـوا المحـارم، وحين بلغ الأمـر الخليفة المهدي أرسـل إليهم جيشـاً لمقاتلتهـم، ولكنهم تكاثروا عـلى جيش الخليفة حتـى انتـصروا عليه وقتلوا عامّة عسـكر الخليفة المهـدي، فقويت بذلك شـوكتهم وازداد شرّهم وسـاعدهم في ذلـك معرفتهم لدروب الصحـراء حيث كانوا يسـكنون بها ولديهم الخبرة الكافيـة بمفاوزها.[1]

وهـذا الطريـق الـذي كان يسـلكه حجاج هجـر قديماً يظهر أنه سـ ـه في تلـك الحقبة معهـم حجـاج العـراق في بعـض رحلاتهم للحـج، وهـذا يعدّ من أقـدم الاعتـداء المباشر عـلى قوافـل الحجيـج، مما يؤكـد قـدم المعانـاة التـي كان يلاقيها حجّـاج البحريـن في هذا الطريـق مـن قطّـاع الطرق التي كانت تسـتغل موسـم الحج للسـرقة والسـلب والنهب.

ولعـلّ مثل هذه الحادثـة وغيرها كان وراء ربط الخلفاء في الدولة العباسـية بالخصوص بـين إمـارة البحرين الكـبرى «هجـر وأوال والخـط» ومنطقة اليمامـة، لما يعانيـه الحاج بين هاتـين المنطقتين مـن صعوبات ومشـاكل في الطريق جعل الخلافة العباسـية تلتفت لأهمية الربـط بـين الولايتين تحـت إدارة واحدة تتولى شـؤونهم وتحفظ الطريق بينهـما، حيث بلغ الأمـر مـن الأهميـة أن جعلت له ولاية تعنـي برعايته وحمايته مـن قطّاع الطـرق والسُّرَّاق، «ففـي عهـد الخليفة العباسي الواثـق أبي جعفر هارون بن محمد المعتصـم (٢٢٧ـ٢٣٢هـ)، عـام ٢٣١هــ، عُقِدَ لأحمد بن سـعيد بن سـلم الباهلي على الثغـور والعواصـم وأُوكل إليه ولايـة اليمامـة والبحريـن وطريق مكة»،[2] ثـم ولي المنصب بعدها أسـحاق بـن إبراهيم بن

١. إمارة الحج في العصر العباسي من سنة ١٣٢ إلى سنة ٢٤٧هـ، مصدر سابق: ١٧٨.

٢. الوشـميم، الدكتـور صالح بن سـليمان النـاصر: ولاية اليمامة دراسـة في الحياة الاقتصاديـة والجتماعية حتـى نهايـة القرن الثالث الهجري، مكتبـة الملكعبدالعزيز العامة: الرياض، الطبعـة الأولى: ١٤١٢هـ: ١١٦.

أبي خميصة والذي كانَ أيضاً والياً على اليمامة والبحرين وطريق الحج.[1]

وحيث أنَّ قطع طريق الحاج يعدّ من أهم المشاكل التي كانت بحاجة إلى ضبطها في خلافة الواثق العبّاسي، سواء على (الجادة) الكوفة مكة المكرمة، وطريق البصرة الذي كان يضم إليه طريق اليمامة والبحرين ومنطقة نجد بصفة عامة من قبل قبائل بني سليم و غيرهم من الأعراب، وذلك في سنة ٢٣٠هـ، إذ بلغ بهم الأمر الوصول إلى المدينة المنورة ونهبوا أسواقها وفعلوا بها الأفاعيل. بالإضافة إلى استحواذهم على المناهل والقرى الواقعة بالطريق الذي يربط بين الحرمين الشريفين، ولم يتمكن من القضاء عليهم إلّا بعدما أرسل إليهم قائده التركي بغا الذي يعد أحد أبرز القوّاد في الدولة العباسية حينها، وتوجه بعهدها إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وهناك التقى بأمير الحج فيها أمير الحرمين الشريفين محمد بن داود العباسي، وكان معه متولياً لأحداث الموسم إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب بن خبيصة مولى بني قشير والذي كان يشغل منصب إمارة اليمامة والبحرين وطريق مكة المكرمة،[2] لتدور بينهم مباحثات ومشاورات حول كيفية إدارة شؤون الحاج وطريقه، أمام الاعتداء المتكررة عليه.

وفي عهد الخليفة المتوكل جعفر بن محمد بن هارون (٢٣٢ـ٢٤٧هـ)، كذلك نصب محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مصعب على اليمامة والبحرين وطريق الحاج.[3]

وما لا شك فيه إنّ طريق الحج الأحسائي مشمول بهذه المسؤولية، خاصة وأنه ممتد من الأحساء إلى اليمامة إلى الديار المقدسة، مما يجعله في حالة إشراف مباشر على سلامة وأمن طريق الحاج أمام المشاكل التي تعترضه.

كما يؤكّد أنّ الخلافة العباسية كانت تعني بشكل مباشر بهذا الطريق لما وجدت له

---

١. ولاية اليمامة، مصدر سابق: ١١٧.

٢. إمارة الحج في العصر العباسي، مصدر سابق: ١٨٦ـ١٨٧.

٣. ولاية اليمامة، مصدر سابق: ١١٧.

من أهمية ولكثرة من يرد على هذا الطريق من الحجاج من مختلف المناطق الشرقية للجزيرة العربية، إضافةً إلى بعض الحجاج الذين يأتون إليها عن طريق البحر من الفرس والهنود وغيرها من المناطق المختلفة، حتى عدّ طريق حاج الأحساء «هجر» أحد الطرق الرئيسية إلى الحج، لأنه الطريق الرئيسي للقادمين من الجانب الشرقي.

وكانت مهمة العناية بطريق الحاج في العصور الإسلامية الأولى توكل إلى والي اليمامة، فـ ان يقوم بتعيين عمال الطرق والمياه ومراقبة المسالك المنوطة به في طريق الحاج، وقد ظهرت هذه العناية في الدولة الإسلامية في وقت مبكر، وحظيت موارد المياه الواقعة عليه بالمراقبة، فقد طرحت إحدى القبائل العربية عاملاً لبني أمية اسمه «مجالد» أساء معاملتهم في قعر البئر ليلاً، فقال شاعرهم:

نحن طرحناه بلا وسائدْ بجمّةِ البئرِ ورغم القائدْ

وتوحي كلمة «قائد» بأن عامل الماء تصاحبه ثلة من الحرس بقائدها.[1]

ومن المهام التي توكل لوالي اليمامة حفظ الأمن والسلامة على طريق الحاج لما يتمتّع به هذا الطريق من أهمية قصوى للدولة الإسلامية، لذا تزوّد الدولة الوالي بالشرطة ورجال الأمن، ويكون له نظراء ومعرّفون وغيرهم مما يساهم وجودهم في انتشار الأمن، وكان على الوالي أن يندب من يجد فيه الحزم والكفاية على شرطة الطريق، فكان ممن ولي شرطة اليمامة عبد الله بن حكّام، وكان عليه تتبع اللصوص وقُطّاع الطرق والضرب على أيديهم.[2]

دولة القرامطة (٢٨١ ـ ٤٦٩ هـ)

نشأت الدولة القرمطية نشأةً قوية جعلها تمتد بنفوذها على رقعة كبيرة من جسد

١. ولاية اليمامة، مصدر سابق: ١٤٠.

٢. ولاية اليمامة، مصدر سابق: ١٤١.

الدولـة الإسـلامية، في ظل ضعف الدولة العباسـية وترهّلها، فقد انطلقـت من الكوفة إلى الشـام ومن الشـام إلى اليمـن ومن اليمـن إلى عمان ومن عمان إلى الأحسـاء. هـذا الامتداد الكبـير والأثر الجسـيم الـذي خلّفتـه في مكة من قتل للحـاج ومن سرقةٍللحجر الأسـود، جعـل دولـة القرامطة جديـرةً بالدراسـة والبحث والتأمـل بغرض فهم هـذا المجتمع وما يعتـوره مـن انحراف فكـري كبير كانت غارقـةً فيه.

لهـذا كتبـت حولهـا الدراسـات والكتـب التـي تتنـاول النشـأة والتطـور والبنيـة الفكريـة لهـا وعلاقتهـا بالدولة الإسـماعيلية، التـي طفا عليهـا التجاذب حينـاً والتنافر حينـاً آخر.

النشأة:

بـدأت نشـأتهم وفقـاً لـرأي معظـم مـن كتـب عنهـم في سـواد الكوفـة، ثـم توسّـعوا وانتـشروا لتطـأ أقدامهم مناطق مختلفة كالشـام والعـراق واليمن وهجر وعـمان و غيرها، وعن نشـأتها يقول سـعد القمـي في كتاب: «المقـالات والفرق»: «وتشـعّب بذلك فرقة... ممـن قـال بإمامة محمد بن إسـماعيل تسـمى القرامطـة، سُـمّيت بذلك لرئيـسٍ كان لهم من أهـل السـواد من الأنبـاط كان يلقّـب بقرمطوية».[1]

بينـما يقـول ثابت بن سـنان أنها نسـبة إلى رجـل: «كان في القرية رجل يدعـى «كرميته» لحمـرة عينيـه، ... ثـم خفف فقيل قرمـط»،[2] ومن هذا الرجل اشـتق اسـم القرمطة».

أمـا أبـن العديـم في كتابـه: «بغية الطالب» يقـول: «وإنـما سـموا القرامطـة: زعمـوا

---

١. القمـي، سـعد بـن عبـد الله الأشـعري: كتاب المقـالات والفرق، سـححه وقـدم له و علـق عليه، د. محمـد جواد مشـكور، مطبعة حيـدري: طهـران، الطبعـة الأولى: ١٣٤١هـ: ٨٣.

٢. زكار، جمـع و تحقيـق ودراسـة د. سـهيل: أخبـار القرامطة في الأحسـاء والشـام والعـراق واليمن، دار الإحسـان: دمشـق. الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م: ٨٤.

أنهم يدعون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر بن علي، و نسبوا إلى قرمط، وهو حمدان بن الأشعث، كان بسواد الكوفة، وإنما سمي قرمطاً لأنه كان رجلاً قصيراً وكان رجلاه قصيرتين، وكان خطوه متقارباً، فسمي بهذا السبب قرمطاً».[1]

وعن مبدأ نشأتهم يقول ثابت بن سنان ابن قرة الصابئ (ت٨٦٥هـ): «في سنة مائتين وثمانية وسبعين من الهجرة، فيها تحرّك بسواد الكوفة قومٌ يعرفون بالقرامطة، وكان مبتدأ أمرهم فيما ذكر أنّ زعيم هذه الطائفة قدم من بلدة من خوزستان إلى عاصمة الكوفة».[2]

بينما يذهب ابن القيم الجوزي في سبب تسميتهم بالقرامطة إلى ستة أقوال، منها إن أول من أشار لهم بذلك محمد الوراق المقرمط وكان كوفياً.[3]

والذي نستفيده من هذه الأقوال إنّ القرامطة كانت نشأتها بسواد الكوفة سنة ٢٧٨هـ، ثم توسعت إلى الشام، وقوت شوكتها في الأحساء التي هي محل تركيزنا وبحثنا والذي يعنينا من تاريخ القرامطة وصلته بتاريخ الحاج الأحسائي.

ظهور القرامطة في هجر:

من الشخصيات التي علقت بذاكرة الأحساء السياسية خلال فترة حكم القرامطة والتي امتدّت لقرابة القرنيْن من الزمان (٢٨١ ـ ٤٦٩ هـ)، والتي كان لها دور بارز في صناعة الأحداث التي شكّلت منعطفاً تاريخياً هامّاً ولافتاً لتلك المرحلة الحسّاسة... ما يلي:

---

١. أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن: مصدر سابق: ٤٤.

٢. أخبار القرامطة: مصدر سابق: ٣٠.

٣. الجوزي، عبدالرحمن بن على بن محمد: القارمطة، تحقيق: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي: بيروت، الطبعة الخامسة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م: ٣٨.

أبو سعيد الجنابي:

بـدأت القرامطـة في البحريـن على يد أبي سـعيد الجنـابي القرمطي الذي خـرج في هجر سـنة ٢٨١هــ، وجعلهـا منطلقـاً لحركته وهجماتـه، واسـطاع أن يكـوِّن له جماعـة تلتفّ حولـه، بعدهـ شَرَع في تصفيـة أعدائـه أو مـن لا يؤمنـون بدعوتـه، حتـى بسـط نفـوذه عليهـا، بعدهـا انطلـق إلى القطيف ليمارس معها نفـس المنهج الدموي من القتل والسـلب والنهـب، حتـى انضوت تحـت سـلطته، فبنى سـلطته ودولته عـلى بثّ الرعـب في قلوب الآمنـين عـن طريـق التصفيـة الجسـديّة وهـدم وتخريـب الـدور وحـرق النسـل والـزرع ممـا جعـل اسـمه منبعثـاً للرعـب والهلـع في القلـوب، وقد ركّـز جهـة إرعابه عـلى طريق الحجاج، لكونـه المـكان الـذي يلتقي فيـه الناس مـن جميع الأقطـار، فقام بإنشـاء عاصمة جديـدة لدولتـه في هجـر سـماها «المؤمنيـة»، ثـم أخذ في توسـعة مملكتـه ليتجه شـمالاً إلى البـصرة ليسـتحوذ المناطـق القريبة منهـا، وهكذا علا صيته واشـتهر اسـمه، وأصبح محل خشـية الجميـع لسـطوته وجبروته وقوة بطشـه.

ففي أحداث سنة ٢٨٧هـ، يقول ابن مسكويه:

«ودخلـت سـنة سـبع وثمانـين ومائتين وفيهـا غلظ أمـر القرامطـة بالبحريـن وأغاروا عـلى نواحـي هجر وقـرب بعضهم مـن نواحي البـصرة، ولّي المعتضـد العبّـاس بن عمرو الغنـوي اليمامـة والبحريـن لمحاربـة أبي سـعيد الجنـابي والقرامطة، وضـمّ إليه زهـاء ألفيْ رجـل، فشـخص العبّـاس إلى البصرة ومنهـا إلى البحريـن واليمامة».[1]

هنـا أدركـت الخلافـة العباسـية مـدى نفـوذ الدولـة القرمطيـة وأنهـا في توسـع دائـم وخطرهـا الجسـيم عليهـا، لـذا عمـد الخليفـة المعتضـد إلى إحضـار العبـاس بـن عمـرو الغنـوي مـن بلاد فـارس وتعيينه أميراً عـلى البحريـن واليمامة بغرض التصـدي للقرامطة

١. ابـن مسـكويه (ت٤٢١هــ)، أحمـد بـن محمد: تجـارب الأمـم وتعاقب الهمـم، تحقيق: سـيد كسروي حسـن، دار الكتـب العلمية: بـيروت: الطبعـة الأولى: ٢٠٠٣م ـ ١٤٢٣هــ: ٤ : ٣٨٢.

وكسـر شوكتهم.

ولإنجـاح المعركـة اسـتعان الغنـوي بجندٍ مـن البصرة، فانضـم إليه ألف فـارس منها وسـار لمواجهـة الجنـابي، ولـ لم يحالفـه الحظ وهزم ومني بخسـارة كبـيرة في الجند قبض عـلى إثرها عليه وسـلب جميع جيشـه مـن قبل قرامطـة هجر.

وفي سنة ٣٠١هـ، قُتِلَ أبوسعيد الحسن بن بهرام الجنابي على يد خادمه في الحمام.[١]

أبو طاهر سليمان الجنابي:

اسـتطاع أبـو طاهـر سـليمان بـن الحسـن بـن بهـرام الجنـابي الاسـتيلاء عـلى هجـر والقطيـف وسـائر بـلاد البحريـن، بعـد أن نحّـي أخـاه سـعيد عن السـلطة الـذي لم يكن يرتـضي النهـج الـذي سـلكه والده مـن العدوان عـلى الحجيج وسياسـة النهب والسـلب الأمـر الـذي جعلـه غير مرضي لـدى القرامطـة، فنُحِّـي وَجُعِلَ أخـوه الأصغـر أبو طاهر سـليمان مكانه.

وكان شـخصيةً قويـة يتمتـع بـذكاء حـاد، وبطـش شـديد، ففـي سـنة ٣١٢هـ توجّه في جيـش كبـيرٍ إلى مكـة المكرمـة بعـد انقضـاء موسـم الحـج بغـرض سـلب الحـاج أثناء رجوعهـم مـن الديـار المقدسـة. يقـول ثابـت بن سـنان: «تحـرّك أبـو طاهـر القرمطي إلى الهبـير، ومعـه جيـش عرمـوم، ليلقـى الحـج في رجوعـه في مكـة، فأوقـع بقافلـة تقدمـت معظـم الحـاج، وكان فيهـا خلـق كثـير مـن أهـل بغـداد وغيرهـم، فنهبهم».[٢]

الأمـر الـذي أدخـل الرعـب في قلـوب حـاج العـراق، فقـرر مـن تأخـر منهـم تغيير الطريـق متخذيـن طريـق الكوفـة، فـما كان مـن أبي طاهـر إلّا أن كمـن لهـم وأوقـع بهـم القرامطـة وأخذوهـم وأوقعـوا فيـه القتل، وسـاق أبـو طاهر معـه جميع جمال الحـاج، وما

١. أخبار القرامطة، مصدر سابق: ٣٥.

٢. أخبار القرامطة، مصدر سابق: ٣٧.

أراد من الأمتعة والمال والنساء والصبيان، وساقهم معه إلى هجر، وترك من بقي من الحاج في موضعهم حتى مات معظمهم من الجوع والعطش وحرّ الشمس، وكان حينها عمر أبو طاهر سبع عشرة سنة.[1]

وهنا قد استشري شرّ القرامطة أيّما استشراء، وعلى الخصوص أبو طاهر القرمطي، فعمد الخليفة كواحدة من الخطوات العملية لمواجهة قرامطة البحرين أن نصب يوسف بن أبي الساج على نواحي المشرق من هجر والخط واليمامة، وأذن له في جباية أموالها وصرفها على قواده وجنده، وسيره إلى واسط ليسير إلى هجر، لمحاربة أبي طاهر الجنابي، كما جعل له خراج قم وقاشان، وماه البصرة، وماه الكوفة، وماه سبذان ليجري منها نفقات تجهيز المعركة.[2]

وهذا يعطي نظرة عن القوة التي بلغها القرامطة في البحرين من حيث القوة والعناد وكثر الجند ليكون الاستعداد لها بهذه الإمكانيات الكبيرة.

لتدور المعركة رحاها سنة ٣١٥هـ، فكانت الغلبة حليفةً لأبي طاهر الذي هزم جيش يوسف وقام بأسره، والكثير من أصحابه، وفي هذه السنة امتنع أهل العراق من الحج.

الاعتداء على مكة المكرمة:

وكان الاعتداء الأكبر للقرامطة على الديار المقدسة في مكة سنة ٣١٧هـ، وقد خرج ركب الحاج من بغداد وأمير الحاج حينها منصور الديلمي، فلحقهم القرامطة يوم «التروية» يقول ثابت بن سنان: «فلحقهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، أي قبل طلوعهم عرفات بساعاتٍ قليلة، فقاتلهم أمير مكة ومن معه، ولم يكن إلّا القليل

١. أخبار القرامطة، مصدر سابق: ٣٧.

٢. أخبار القرامطة، مصدر سابق: ٤٥.

حتى هزمهم، وأعمل فيهم السيف، ونهب الحجيج، وقتل الحجاج حتى في المسجد الحرام، وفي البيت نفسه، ورمى القتلى في بئر زمزم حتى امتلأت بجثث القتلى، وخلع باب الكعبة ووقف يلعب بسيفه على باب الكعبة، وينشد ويقول:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلقَ وأفنيهم أنا

وصعد رجل ليخلع ميزاب البيت، فوقع صريعاً ميتاً، ودفن باقي القتلى في المسجد الحرام بدون تكفين، ولا صلّي عليهم، وأخذ كسوة الكعبة فقسّمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة، وخلع الحجر الأسود من البيت، فوضعه على سبعين جمل، فسيّرهم به... إلى هجر».[1]

وظلّ الأمر في يد القرامطة مما جعل الحجّاج يتهيبون من الذهاب إلى مكة، يقول ابن خلدون بعد سنة ٣٢٠هـ:

«وانقطع الحج من العراق بعدها إلى أن كاتبَ أبو علي يحيى الفاطمي سنة سبع وعشرين من العراق أبا طاهر القرمطي أن يطلق السبيل للحجاج على مكسٍ،[2] يأخذه منهم، وكان أبو طاهر يعظّمه لدينه ويؤمله فأجابه إلى ذلك وأخذ المكس من الحجاج ولم يعهد مثله في الإسلام وخطب في هذه السنة بمكة للراضي بن المقتدر وفي سنة تسع وعشرين لأخيه المقتضي من بعده ولم يصل ركب العراق في هذه السنين من القرامطة، ثم ولي المكتفي بـ المكتفي سنة ثلاث وثلاثين على يد توروز أمير الأمراء ببغداد، بخرج الحاج في هذه السنة لمهادنة القرامطة بعد أبي طاهر ثم خطب للمطيع ابن المقتدر بمكة مع معز الدولة سنة أربع وثلاثين، وذلك عندما استولى معز الدولة ببغداد وقلع عين المسـ فمي واعتقله ثم تعطل الحج بسبب القرامطة، وردوا الحجر الأسود سنة تسع وثلاثين بأمر المنصور العلوي صاحب إفريقية وخطابه في ذلك لأميرهم أحمد

١. أخبار القرامطة، مصدر سابق: ٥٣.

٢. المَكْس: الضريبة، وجمعه: مكوس.

بـن أبي سـعيد ثـم جـاء الحاج إلى مكة سـنة ثنتـين وأربعين مع أمـير من العـراق وأمير من مصر».[1]

يصف «ناصرخسرو» مدينة الأحساء في القرن الخامس الهجري فيقول:

«ومـن اليمامـة إلى الحسـا أربعـون فرسـخاً، ولا يتيسّر الذّهـاب إليهـا إلّا في فصل الشـتَاء حِـين تتجمّـع ميـاه المطـر فيـشرب الناس منهـا، ولا يكـون ذلـك في الصَّيف، والحسـا مَدِينَـةٌ فِي الصحـراء، ولبلوغهـا مـن أَي طريق ينبغـي اجتياز صحراء واسـعة والبصـرة أقـرب البـلاد الإسـلامية التـي بهَا سـلطنة إلى الحسـا وبينهما خمسـون ومائة فَرسَـخ وَلم يقصـد سـلطان مـن البصرة الحسـا أبداً، والحسـا مدينة وسـواد أيضـاً وبها قلعـة ويحيـط بهَـا أربعـة أسـوار قويـة متعاقبـة مـن اللَّبـن المُحكم البنـاء بـين كل اثنين منهـا مَـا يقرب مـن فَرسَـخ، وفي المدينة عيون مَـاء عظيمة تكفي كل منهـا لإدارة خمس سـواق ويسـتهلك كل هـذا المَـاء بهَـا فـلا يخـرج منهـا ووسـط القلعـة مدينـة جميلة بها كل وسـائل الحيـاة التـي في المـدن الـ ة وفيهَـا أَكثر مـن عشرين ألف محـارب، وقيل إِنّ سـلطانهم كان شريفـاً وقـد ردّهـم عـن الإسـلام، وقـال إني أعفيتكـم مـن الصلاة والصـوم ودعاهـم إلى أنّ مرجعه لَا يكون إلّا إليه وإسـمه أَبُو سـعيد وَحين يسـألون عَـن مذهبهـم يقولـون: إنـا أبوسـعيديون! وهـم لا يصلـون ولا يصومـون ولكنهـم يقـرّونَ بمحمـدٍ المصطفـىﷺ وبرسـالته، وقد قـال لهم أبوسـعيد: إني أرجـع إليكم، يعنـي بعـد الوفاة وقـبره داخـل المدينة».[2]

ثـم يصـف نـاصر خسرو في «سـفرنامه» مـن كان قد نـذر نفسـه لتعهد الحـاج في دولة

---

١. المغـربي، عبدالرحمـن بـن محمـد بـن خلـدون الحضرمـي المتوفي سـنة ٨٠٨هــ: تاريـخ ابـن خلدون، مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعـات: بـيروت، الطبعـة الأولى: ١٣٩١هــ ١٩٧١م: ٥ : ١٠٠.

٢. علـوي، نـاصر خسرو: سـفرنامة، ترجمة: د. يحيى الخشـاب، الهيئـة المصرية العامة للكتـاب: القاهره، الطبعة الثانيـة: ١٩٩٣م: ١٤٢.

القرامطة رغم ما يحفّ الأمر من مخاطر، فيقول:

«وليس في مدينة الحسا مسجد جمعة ولا تقام بها صلاة ذو خطبة إلّا أَن رجلاً فارسياً اسمه علي بن أحمد بنى مسجداً وهو مسلم حاجٌ غنِيٌّ كَانَ يتعهد الحجاج الذين يبلغون الحسا».[1]

ومثل هذا الوصف الذي ذكره ناصر خسرو لا يمكن القبول به بالمطلق وحمله على المسلّمات، والحكم على تاريخ منطقة ذات تاريخ إسلامي حافل بهذه السطحية والفكر الساذج، وأنهم يصبحون بين ليلة و ضحاها كفّاراً لا يقيمون الصلاة ولا يصومون متناسين تاريخاً إسلامياً حافلاً سطّرته قبيلة عبد القيس في التاريخ الإسلامي، وإنما يمكن حمل قوله إنّ ناصرخسرو جاء في حقبة رعب وخوف شديد كان الناس يتستّرون على معتقداتهم ودينهم خشية القرامطة الشديدة الفتك بكلّ معارض لها و لمنهجها.

كما أنَّ نظرة ناصرخ و يمكن حملها على أنه احتكّ بفلول القرامطة الوافدين على المنطقة، وليس الأهالي الوادعين و من دخل آبائهم في الإسلام طواعية غير مكرهين ولا مجبرين، فسطّروا تاريخاً مشرّفاً في صفوف القتال بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ومن جاء بعدها من الخلفاء، عبر مشاركتهم في الفتوحات الإسلامية في مختلف الأقطار.

وهكذا استمر القرامطة في تماديهم نحو الديار المقدسة بالقتل تارة والنهب والسلب تارة أخرى، ورغم اختلاف النظرات حول القرامطة ودورهم وانتمائهم الفكري، تبقي بصمتهم السيئة واضحة وقويّة على بلاد الحرمين، لم يغسلها إلّا القضاء عليهم إلى الأبد على يد البطل الأحسائي عبد الله بن علي العيوني ليؤسّس لدولة جديدة فتية عرفت بالدولة العيونية نهضت على أنقاض الدولة القرمطية.

---

١. سفرنامه، ناصر خسرو، مصدر سابق: ١٤٣.

الدولة العيونيّة (٤٦٩ـ٦٣٦هـ)، نبذة تاريخيّة:

قامت الدولة العيونية على أنقاض الدولة القرمطية بعد آن ثار عليها الأمير عبدالله بن علي العيوني، وذلك مع بداية اتمام ٤٦١ هـ، يدعمه في ذلك أبناء عمّه من قبيلة عبد القيس وأبناء عشيرته العيونية، وقد قام بشنّ عدّة هجمات على الأحساء، إلّا أنه لم يظفر بها، حتى استعان بالدولة العباسية التي أمدته بجيشٍ قوامه سبعة آلاف مقاتل، بعد آن وافق السلطان السلجوقي جلال الدولة أبو الفتوح ملكشاه على إرسالها لحرب القرامطة بقيادة إكسلار الذي توجه إلى الأحساء عام ٤٦٩ هـ.

وهكذا استمر في شنّ الهجمات بغرض الاستيلاء على القطيف والأحساء إلى استطاع السيطرة عليهما، ونصَّب نفسه حاكماً على بلاد البحرين؛ في تفاصيل ذكرتها الكتب، لتحظى المنطقة بسلطة وحكومة جديدة.

أبرز الحكّام العيونيين:

تعاقب على حكم الدولة العيونية والتي استمرّت قرابة ١٦٧ عاماً أكثر من عشرين حاكماً عيونيّاً، وذلك ابتداءً من تأسيسها عام ٤٦٩ هـ على يد أميرها عبد الله بن علي العيوني وحتى اضمحلالها إثر الأخطار الخارجيّة والنزاعات الداخليّة في عهد الأمير عماد الدين محمد بن مسعود بن أحمد سنة ٦٣٦ هـ.

وفي خضم هذه السنوات الطويلة للدولة العيونية وما شابها من وقائع وأحداث هامّة بأمكاننا أن نلحظ تذبذبها بين القوة وبسط النفوذ والضعف والترهل من خلال تسليط بعض الضوء على أبرز حاكها الذين لا يمكن تجاوزهم خلال دراسة الدولة العيونيّة نظراً للوقائع التي حدثت أبّان تسنّمهم كرسي الإمارة، وما استتبع ذلك من تداعيات سياسيّة واعتبارات مجتمعيّة فرضتها الأحداث آنذاك.

من أولئك الحكّام العيونيين ما نستعرضه في هذا الإيجاز، وهم ثلاثة أسماء شكّلت

مساحة كبيرة على خارطة التاريخ للدولة العيونيّة، وهم:

الأمير عبدالله بن علي العيوني (٤٧٠ـ٥٢٠هـ)

وفي تفصيل موجز عن الأمير الشجاع عبدالله بن علي العيوني، إنه خلال القرن الخامس الهجري شهدت الدولة القرمطية ضعفاً كبيراً نتيجة تخلي بعض حلفائها عنها منها فتور العلاقة التي كانت تجمعها بالدولة الفاطمية، وبالتالي فُقدت حليف قوي.

كما شهدت صراعات داخلية بين أفراد الأسرة على السلطة مما شجع المعارضين للوجود القرمطي في بلاد البحرين للثورة عليهم والعمل على تقويض نفوذ هذه الدولة.

ففي بلاد البحرين بجزيرة أوال تحرك أبو البهلول العوام بن محمد الزجاج، بمحاولة الانشقاق من نفوذ القرامطة والاستقلال عن السلطة العليا في الأحساء لهم، وقد استطاع أن يحدث لهم جلية قوية.

وفي القطيف كان تحرك يحيى بن العياش من عبد القيس الذي استطاع إسقاط حكم القرامطة في القطيف وقيام إمارة آل عياش في العقد السادس من القرن الخامس الهجري، والذي اتصل بالدولة العباسية طالباً النصرة على القرامطة.

في نفس الوقت بدأ تحرك الأمير العيوني في الأحساء، والذي استطاع استثمار الأحداث لصالحه والاستفادة منها بعد أن أخذ يتهاوى ويتزعزع سلطان القرامطة في دولة مترهلة فاستطاع خلال عمل متواصل ودؤوب استمر لمدة سبع سنوات من العمل على تقويض أركان القرامطة في المنطقة،[1] بعد أن استعان بمختلف الأطراف المعارضة للقرامطة كالدولة العباسية والدولة السلجوقية، بل وحتى الفاطميين الذين أصبح لديهم نقمة على القرامطة، ودخل معهم في معارك عديدة بدأ بالقبائل الحليفة للقرامطة كبني

١. المديرس، د. عبدالرحمن بن مديرس: الدولة العيونية في البحرين ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ـ ١٢٣٨م، دارة الملك عبد العزيز: الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ: ٨٥.

عامر وفلول القرامطة في المناطق المحيطة حتى حصر من بقي منهم في الأحساء.

وبناءً على ذلك قام بمحاصرتهم و تضييق الخناق عليهم مما جعلهم يتحصنون في الأحساء، وجعل الخيار في المفاوضات وتوقيع معاهدة مقابل السماح لهم بمغادرة البلاد، واستطاع بذلك سنة ٤٦٩ هـ، من الدخول قصر الإمارة، لتبدأ دولته مرحلة الاستقرار سنة ٤٧٠ هـ.

بعد أن قام الأمير عبد الله بالقضاء على دولة القرامطة خوّله ليكون مقبولاً لدى الخلافة العباسية من جهة والسلجوقية من جهة أخرى، ولربها استخدمته الدولة العباسية كعنصر ضغط على القبائل المنتشرة بين البصرة وبلاد البحرين التي كانت مصدراً للقلاقل؟ والفتن في جنوب العراق وعلى طول طرق الحج،[1] لما كان يتمتع به من منعه وقوة بعد قضائه على القرامطة.

الأمير محمد أبو سنان العيوني (٥٢٠ ـ ٥٣٨ هـ)

تولّى أبو سنان محمد العيوني السلطة في بلاد البحرين في أعقاب اغتيال والده الفضل، فقد اشتهر هذا الأمير العيوني الشجاع ببسالته ونشاطه في القضاء على المفسدين والمعتدين في أصقاع الجزيرة العربية وعلى الخصوص المعترضين طريق الحاج، حتى قال في شأنه علي بن المقرب العيوني:

ما الذي أصحب المجتازَ من حلب إلى العراقِ إلى نجدٍ إلى أَدَمَا.[2]

فقد كانت القوافل التي تقطع الطريق بين الأحساء إلى نجد إلى مكة المكرمة تعاني من مشاكل قطّاع الطرق الذين ينهبون أمتعة العابرين ويسرقونها دون رادعٍ من دين أو خشيةٍ من سلطان، فكان له اليد الطولي في مواجهتهم والتصدّي لهم والقضاء عليهم.

---

١. الدولة العيونية في البحرين، مصدر سابق: ١٠٧.

٢. أدما: هي قرية لبنانية من قري قضاء كسروان في محافظة جبل لبنان.

يقول شارح الديوان:

«في الحديث عن محمد بن أبي سنان العيوني أنه كان على صلاتٍ قوية مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله، واشتهر بقضائه على قطاع الطرق الذين يتعرضون الحجاج في طريقهم إلى مكة، وأخذ على أيدي مفسدي العرب حتى صار الراكب يسير إلى عمان من الأحساء وإلى العراق وإلى نجد وإلى الشام فلا يفزعه أحد، وكذلك القافلة أين أدركها الليل باتت لا تخاف من أحد».[1]

أثر مقتل أبي سنان العيوني:

مقتل الأمير محمد بن الفضل أبوسنان سنة ٥٣٨هـ، يعدّ بمقام الضربة القوية للدولة العيونية، وبداية تفكك أجزاء الدولة العيونية، ففي الأحساء تولى الأمير علي بن عبدالله العيوني مقاليد الحكم والذي بايعه أهلها لكونه أكبر أفراد البيت العيوني، في حين تمكن الأمير الحسن بن عبدالله العيوني من السيطرة على جزيرة أوال بعد معركة الأحساء، أما القطيف فقد بايع أهلها الأمير غرير بن الفضل شقيق الأمير أبي سنان بن الفضل العيوني.[2]

الأمر الذي نجم تفكك الدولة العيونية إلى ثلاث دويلات، مما فتح المجال أمام البدو والقبائل المحيطة بها أن تستغل هذا الضعف لصالحها، غير عابئة بتاريخ العلاقة الطيبة بينها والدولة العيونية السابقة، طالما وجود فرصة لصالحها لممارسة النهب والسلب.

---

١. قوافل الحج المارة بالعارض، راشد بن محمد عساكر، مجلة الدرعية، السنتان السادسة والسابعة، العددان: الرابع والخامس والعشرون، ذوالحجة ١٤٢٤هـ، ربيع الأول ١٤٢٥هـ، فبراير ـ مايو: ٢٠٠٤م: ٦٧.

٢. خليل، د. محمد محمود، تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية المسمي إقليم بلاد البحرين في ظل حكم الدويلات العربية (٤٦٩ـ٩٦٣هـ/ ١٠٧٦ـ١٥٥٥م)، مكتبة المدبولي: القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م: ١٧١.

فعلى سبيل المثال العلاقة التي بين العيونيين وأمراء ربيعة تحولت من حالت الحبّ والودّ إلى العداء بعدما خرج أمراء ربيعة عن طاعة الدولة العيونية ونفوذها، وأصبحوا يهدّدوا طرق التجارة والحجيج.[1]

ولم تهدأ تلك الفوضى إلّا مع إطلالة عام ٥٨٧هـ، بصعود الأمير محمد بن أحمد العيوني الذي أعاد للدولة العيونية مجدها وكان بمثابة المؤسس الثاني للدولة العيونية.

الأمير محمد بن أحمد العيوني (٥٨٧ـ٦٠٥هـ):

هو الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني، ثاني أبرز شخصية في تاريخ الدولة العيونية بعد المؤسس الأمير عبدالله بن علي العيوني لما قام به من تثبيت دعائم الدولة، وتنظيم إدارتها، فقد استطاعت الدولة العيونية في عهده أن تحافظ على مكانتها وسمعتها في الجزيرة العربية كقوة حامية عن الحجاج وطرق الحاج ضد قطاع الطرق واللصوص المنتشرين في ربوع الجزيرة العربية والذين كانوا يثقلون كاهل الحجاج بالضرائب، وسلب المال، وقد يصل إلى القتل أحياناً.

لذا شجع الخليفة العباسي الناصر أمير البحرين محمد بن أحمد العيوني على قمع بعض القبائل العربية القاطنة في بلاد البحرين وجنوب العراق التي تشكل خطراً على طرق القوافل الممتدة من العراق عبر الجزيرة العربية، وعهد إليه حماية أرياف البصرة وخفارة الحاج.

ومقابل ذلك فرض له الخليفة السلجوقي الناصر لدين الله: «كلّ سنة من ديوان الزمام ببغداد ألفاً ومائتي ثوب من معمول مصر وخوارزم وأكثرها أبريشم، وفرض له في البصرة ألفاً وخمسمائة حمل حنطة وشعيراً وأرز وتمر مدة حياته».[2]

---

١. تاريخ الخليج[الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٢٩٣.

٢. الدولة العيونية في البحرين، مصدر سابق: ١٣١.

وهـذا يؤكّـد متـن العلاقة بـين الخليفـة الناصر والأمـير العيـوني الذي اثبـت وجوده، وللمصالح المشـتركة بـين الطرفين.

وقـد تجلّـى دول الأمـير الأحسـائي في أحداث سـنة ٥٩٨ هـ، بالتصـدّي لتحالف قبل مـن بنـي ربيعـة بزعامة دهمش ابـن أجود وزعـماء آخرين، وشـاركتهم بعـض بطون طيئ و زبيـد. ويبـدو أنّ من أسـباب قيـام الأمير العيوني بهـذا العمل قيام تلـك القبائل بمهاجمة أراضي عقيـل في جنوب العـراق وفي منطقة الفرات.

وكانـت قبائـل عقيل متحالفـة مع الأمـير العيوني، بل قيـل: إنّ الأمير محمـداً كانت له الزعامـة عـلى تلـك القبائـل، ولهذا فقـد بعثـوا إلى الأمير العيوني يسـتنهضونه عـلى محاربة قبائل ربيعـة وحلفائهم.

غـير أنّ سـبباً آخـر ربما كان الدافـع الرئيس لأمير البحريـن لمحاربة تلـك القبائل، فقد اشـتكى الحاج من بطـش قبائل طيئ بقوافل الحج ونهبها، فأرسـل الخليفة الناصر رسـولاً إلى الأمـير العيـوني يحثّـه عـلى النهـوض للتصدي لهـم وقتالهم، فاسـتجاب أمـير البحرين لذلـك، وجمع جيشـاً عظيـماً من قبائـل البحرين، وزحف بهم شـمالاً في اتجـاه مواطن طيئ وخلفائهـم بعـد أن انضمـت إليـه بطون عقيـل، والتقـى الأمير العيـوني التحالـف القبلي بالقـرب مـن الكوفة، واسـتطاع الأمير محمـد أن يلحق بهـم هزيمةً مريـرة اضطر زعيمهم دهمـش للالتجـاء إلى قـبر الإمـام عـلي عليه السلام بالنجف، فحـاصره الأمـير العيـوني، ثم قبض عليـه، وأرسـله إلى الخليفـة العبـاسي الذي طلب منـه عدم التعـرّض للحاج، فاسـتجاب لذلك، فاطلـق سراحه.[1]

ولم يكتـفِ الأمـير بالقتال والمواجهة وإنما سـعى لتسـهيل طريق الحـاج وحماية القوافل

١. الدولـة العيونيـة في البحريـن، مصـدر سـابق: ١٣٢، المناعي، سـامي جاسـم عبدالعزيـز، ابن مقرب العيـوني شـاعر الخليـج العـربي في العصور الإسـلمية حياته و شـعره، جامعـة قطر: الدوحـة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٨٢م: ١٥.

قـام بكسـب وجذب القبائـل التي تقطـن الصحراء ومنهم بنـو عامر بـن صعصعة وعائذ وخفاجـة وقبيلة قيـس وقبيلة ربيعة.[1]

وهـؤلاء القبائـل كانت لهم سـيطرة تامة عـلى صحراء الأحسـاء والطريـق المتجه نحو تهامـة وعـمان، وهـذا دليل عـلى نفوذ وسـيطرة الدولـة العيونيـة في عهد هـذا الأمير يقول الحميـدان: «لـذا فقـد وصـف ابـن المقـرب في إحدي قصائـده بـلاد البحرين بأنهـا أرض عامر لأنهـم أهل الباديـة وأصحـاب خفارتها.

إنّ خضـوع الحـكّام العيونيـين لمطالـب بنـي عامـر مـؤشر واضـح عـلى عجزهـم عـن إخضاعهـم بالقـوة لذا فقد فضلوا اتباع سياسـة لاترضية معهـم. وأنّ ذل يمكن أن يترجم عـلى أنّ بنـي عامر قـد أصبحوا يتحملـون مسـئولية حماية أريـاف البحرين وقوافـل التجّار والحجـاج مقابـل مبالغ معينـة يحصلونها مـن المزارعين والتجّـار والسـلطة الحاكمة».[2]

ولعـلّ مـن أبـرز معـالم نهضة وقـوة الأمير محمـد أنَّه اسـتطاع فـرض نفوذه وسـيطرته عـلى جنـوب العـراق، ونجـد وبعـض بادية الشـام، كـما وحّـد البحريـن وجعـل القبائل القاطنـة في باديتهـا طوع أمـره، وقد خـشي الجميع مواجهتـه أو عصيانه، فاسـتطاع بذلك الحفـاظ عـلى أمن المـدن والقرى في بـلاد البحرين التي عانـت فيما مضى مـن هجوم تلك القبائل وتحرشـها بالبسـاتين والزروع.

مـا اسـتطاع الأمـير تأمـين طريق الحج الـذي يأتي مـن العـراق أو ينطلق مـن البحرين إلى بيـت الله الحـرام حيـث خضعت تلـك المنطقة لنفـوذه وسـيطرته، مما زاد مـن علاقات الـودّ مع الخليفـة العباسي.[3]

---

١. تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٢١١.

٢. إمارة العصفوريـين ودورها السـياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربيـة، عبداللطيف الناصر الحميدان، مجلة كلية الآداب في جامعة البـصرة، س١٣، ع١٥، ١٩٧٩م: ٨٣.

٣. تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٢١٧.

كما يمكن القول إنّ من أفضل مميزات عصر الأمير محمد، تمتع حجاج بيت الله الحرام بالأمن والطمأنينة في ذهابهم أو قدومهم من البيت الحرام، حيث عمل الأمير على توفير سبل السلامة وتأمين الطرق من القبائل العابثة بالحجاج، فلم تجرؤ أي قبيلة على المساس بروّاد بيت الله حتى مات الأمير محمد.[1]

الإمارة العصفورية (٦٣٠ هـ ـ خلال القرن الثامن الهجري)

يرجع نسب الإمارة العصفورية إلى زعيمها الشيخ عصفور بن راشد بن عميرة بن سنان بن غفيلة (عقيلة) بن شبانة بن قديمة بن شبانه بن عامر.[2]

فكانت القطيف أول محطات سيطرتهم على المنطقة، فقد خضعت لسلطتهم سنة ٦٣٠ هـ، ثم كان لهم السيطرة على الأحساء بعد دخولها دخول الفاتحين على يد زعيمها الشيخ عصفور بن راشد بن عميرة، وذلك بعد أن تواطأ أيان؟ الأحساء واتفقوا على تسلم المدينة لزعيم بني عامر القوي عصفور بن راشد.

ذكر القلقشندي نصّاً يدلُّ على سيطرة العصفوريين على الأحساء في تلك الفترة حيث قال: «وقد ملكوا البحرين بعد بني أبي الحسين، غلبوا عليها تغلباً، قال ابن سعيد: «وكان ملكهم في نحو الخمسين من المائة السابعة، ملكها منهم عصفور وبنوه»، ثم زاد القلقشندي في موضع آخر، وقال: «وهم أصحاب الأحساء وهي دار ملكهم».[3]

قامت الدولة العصفورية في أعقاب نهاية الدولة العيونية، وفي هذه المرحلة لم نعرف الكثير عن دورهم في قيادة الحجاج إلى بلاد الحرمين، سوى ما ذكره ابن خلدون

---

١ . تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، محمد بن عبدالله آل عبدالقادر: ١ : ١٠٤ .

٢ . الظاهري، أبو عبد الرحمن بن عقيل: أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء، تقديم حمد الجاسر، دار اليمامة: الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ: ١١٦ .

٣ . تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٣٦٤.

(ت٨٠٨هـ)، عن بن سعيد أنه التقى بركب البحرين في المدينة النبوية فسألهم: «سألت أهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية سنة إحدى وخمسين وستمائة عن البحرين، فقالوا الملك فيها لبني عامر بن عوف بن عامر بن عقيل، وبنو تغلب من جملة رعاياهم، وبنو عصفور منهم أصحاب الأحساء».[1]

وبالرغم من ندرة المعلومات عن إمارة العصفوريين في الأحساء، فضلاً عن معالم الحج الأحسائي في عصرهم، إلّا أننا نستطيع أن نتكهّن إنّ الحج نَعُمَ بالأمن فترة العصفوريين، لا أقلًّا من البدو والأعراب في المناطق المحيطة والواقعة بين الأحساء واليمامة، وذلك بعد أن بسطوا نفوذهم إلى اليمامة وخضعت المنطقة لسيطرتهم وحمايتهم.

وقد امتدت سيطرة الدولة العصفورية على إقليم نجد وأرض اليمامة من بني كلاب،[2] يدلّ على خضوع إقليم اليمامة (نجد) لسيطرة العصفوريين حوالي عام ٦٥٠هـ، والجدير بالذكر هنا أنّ ابن سعيد ـ الذي أشار إلى نفوذ العصفوريين ـ زار الشرق بين عامي ٦٤٨ ـ ٦٥٢هـ، ومن تلك المدن التي زارها المدينة المنورة عام ٦٥١هـ، ووصف ابن سعيد الحياة في نجد وبلاد البحرين وصفاً دقيقاً من خلال الأشخاص المقيمين في تلك المناطق، والذين قابلهم في مدينة الرسول، وكتب ما دوّنه بناءً على وصفهم، فكان مما دوّنه قوله: «بين القطيف واليمامة مجالات بني عامر، ولم يبق معهم لأحد من العرب عز في بلاد اليمامة والبحرين، ومنهم الآن ملوك الصقعين»، وذلك في إشارة إلى تمدّد ملكهم وقوتهم في المنطقة، وهذه المنطقة هي محل طريق الحاج الأحسائي بالمناطق التابعة لها، ومما يؤكّد هذا الـ لام أنَّ الحقبة العصفورية عرفت بالرفاه الاقتصادي، وهو أمر يتطلّب الاستقرار الأمني من قطّاع الطرق واللصوص التي تتربص بالقوافل

١ . الدولة العيونية في البحرين، مصدر سابق: ١٤٨.

٢ . الدولة العيونية في البحرين، مصدر سابق: ١٤٨.

المارة ذهاباً وإياباً، والحج كفريضة دينية كانت محل عناية واهتمام في تذليل الصعاب.

وهذا الأمر لم يستمر للعصفوريين لفترة طويلة، فقد تمَّ طردهم من جنوب نجد من بيشة بقوات حاكم إقليم عسير، وبقيادة أحد ولاته وهو الوالي محمد بن سعد الشرقي، الذي أجلا القبائل النجدية عن بيشة، بل واستطاع أيضاً السيطرة على مدينة «أوضاح» جنوب نجد، والتي تقع على طريق التجارة والحجيج والتي أهتم بها العصفوريون نظراً لحرصهم الشديد على حفظ الحجيج، وتنشيط التجارة وإخضاع أهم المدن الواقعة على طرق التجارة لسيطرتهم وذلك من أجل منفعتهم الاقتصادية التي بنوا عليها قوتهم السياسية والعسكرية.[1]

مما يؤكد ما وصل إليه العصفوريون من قوة اقتصادية تكوينهم علاقة اقتصادية بدولة المماليك في مصر والشام، يقول ابن فضل الله العمري عن تلك العلاقة في كتابه: «التعريف بالمصطلح الشريف» حيث قال: «وأما عرب البحرين فهم قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجار، ويجلبون جياد الخيل، وكرام المهاري، واللؤلؤ وأمتعة من أمتعة العراق والهند ويرجعون بأنواع الحباء والأنعام والقماش والسكر، وغير ذلك ويكتب لهم بالمسامحة فيردّون ويصدّون».[2]

وهذا النص فيه عدّة دلالات هامة من أبرزها «فيردون ويصدون» في إشارة إلى تكرار الرحلة وأنّ الصفقات الاقتصادية بينهما طويلة، وأمر آخر «من أمتعة العراق والهند» التي يحتمل أنّ بعضها كان يردهم عن طريق الحجاج الذين يصلون الديار المقدسة من طريق الأحساء، فيكون كنوع من التمويل والتجارة مبادلة البضاعة الأحسائية ببضاعة هندية أو عراقية، فيكون منها من الوفرة أن يستفاد منه للتجارة مع المناطق الأخرى.

---

١ . تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٣٧٥.

٢ . تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٣٧٩.

والجديـر بالذكـر أنّ الأمير العصفوري محمد بـن أحمد العقدي، كان يذهب بنفسـه إلى مـصر لتدعيم أواصر الصداقة مع السـلطان المملوكـي الظاهر بيبرس.[1]

ولم تكـن العلاقـة العصفوريـة المملوكيـة اقتصادية بعيـدة عن القـدرة العصفورية على طريـق الحج والسـيطرة عليه سـواء عـن طريق الأحسـاء لمن يأتـون عبر البحـر، أو طريق الحـاج العراقـي الـذي كانت لهم سـيطرة عليه.

يقـول الدكتـور محمد محمود خليـل: «و لابدّ هنا من الإشـارة إلى أنّ سـلاطين المماليك كانـوا حريصـين أيضاً عـلى تدعيم علاقتهم مـع الأمـراء العصفوريين، لكسـب مزيد من النفـع والنفـوذ العسـكري والاقتصادي عـن طريق مـا للعصفوريين من نفـوذ على طريق الحجيـج والتجـارة في العـراق والخليـج الفارسي وبـلاد البحريـن، وما تمتعت بـه الإمارة العصفوريـة مـن قـوة عسـكرية تسـتطيع حمايـة مصالـح المماليـك، خاصـة بعد مـا دخل العصفوريـون في حلـف مع آل جـروان أصحاب الأحسـاء.

ويؤكـد ذلك مـا أورده المقريزي في كتابه السـلوك، بـأن العصفوريين كانـوا يتعرّضون للقوافـل التجاريـة وقوافـل الحجيـج التـي تسـير تحـت رايـة الدولـة المغوليـة، وذلـك لإضعـاف النفـوذ المغولي من ناحية ولكسـب رضا السـلطان المملوكي مـن ناحية أخرى، وذلـك بناءً عـلى أوامر من السـلطان الناصر محمد بن قـلاوون الـذي أراد إضعاف الهيمنة المغوليـة في شـبه الجزيـرة العربية، وخاصـة في المناطـق الخاضعة لحلفائـه العصفوريين.

ويبـدو لنـا أنّ السـلطان المغـولي أبـا سـعيد كان يعـي ذلـك الوضـع جيـداً لـذا دخل ذلـك السـلطان المغـولي مـع السـلطان المملوكي النـاصر محمد بـن قلاوون في صلح سـنة ٧٢٠هـ، وقـد ذكر ذلك الصلح المؤرخ أبـو الفدا في تاريخه حيث قـال: «وفيها ٧٢٠هـ في يـوم الاثنـين تاسـع ذي الحجة، وصل إلى إسـماعيل السلامي، رسـول من جهة أبي سـعيد ملـك التـتر، ومـن جهة جوبـان، وعلي شـاه بهديـة جليـة، وتحـف ومماليك وجـواري مما

١ . تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٣٨٠.

يقارب قيمته خمسين تمانّا، والتمان هو البدرة، وهي عشرة آلاف درهم، وسار بذلك إلى السلطان [الناصر محمد بن قلاوون]».

ويبدو أنّ السلطان قلاوون بو سعيد عندما اطمأن على إصلاح العلاقات مع السلطان المملوكي قلاوون سارع بتسيير القوافل التجارية وقوافل الحجيج عبر الأراضي الخاصة لبني عصفور أحلاف المماليك.

ويوضّح المؤرخ المقريزي تلك الأحداث حيث يقول: «إنّ قافلة الحجيج العراقية خرجت من البصرة سنة ٧٢١هـ، تحت راية المغول، فقام العصفوريون وحلفاؤهم من العرب باعتراضها، كما جرت العادة بذلك، حيث خرج العصفوريون بألف فارس من أجل نهب تلك القافلة ذات الراية المغولية.

فما كان من رئيس قافلة الحجيج العراقي إلّا أن سارع بإخبار العصفوريين ومن معهم من أحلاف، بأنّ تلك القافلة خرجت بموافقة السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وأنه في حالة وفاق وصلح مع السلطان المغولي أبو سعيد، ونتيجة لذلك أخلا العصفوريون سبيل تلك القافلة وتنحوا جانباً عن طريقها، بل بالغوا في الأمر وقالوا: لأجل الناصر نخفركم بغير شيء، فبلغت قافلة الحجيج مكة بسلام، وعندما بلغ أمر تلك القافلة السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، سرَّ وابتهج من فعل العصفوريين وقولهم، وبالغ في الإنعام على بني عصفور».[1]

وهذا النص يبيّن مدى اتساع السيطرة التي بلغها العصفوريون على طريق الحاج في الأحساء والعراق، وأنهم يشكلون قوة ضاربة أمام المعتدين والمخالفين لهم.

لذا و إن خفيت عنا معالم الحج الأحسائي في هذه الحقبة، لكن ندرك قدر الأمن والرحة الذي وصل إليه الحاج الأحسائي ومن يسير ضمن ركبه خلال الحقبة العصفورية.

١ . تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٣٨٤ـ٣٨٦.

وبالرغـم مـن كلّ شيء يبقى تاريـخ الدولة العصفوريـة يكتنفه الكثير مـن الغموض، والتسـاؤلات عـن الموقع الجغرافي لدولتهـم في مقابل الدول التي حكم الأحسـاء في نفس الفـترة، وعـن طبيعة العلاقة التي تربطهـم ببعضهم البعض، ثم هل مـارس العصفوريون قطـع طريـق الحـاج أو كانـوا يفرضـون ضريبـة على قوافـل الحجيـج مقابل تأمـين الحماية لوصولهـا، وغيرهـا مـن الجوانـب المختلفـة، فـلا زالـت المصـادر شـحيحة عـن جوانب تاريـخ هـذه الدولة الأحسـائية التـي كان لهـا نفـوذ قـوي وسـلطة واسـعة عـلى أطـراف الجزيـرة العربية.